في قراءة النصوص الأدبية

نماذج وتطبيقات

تأليف
دكتور نبيل محمد رشاد
أستاذ الدراسات الأدبية المساعد
كلية التربية جامعة عين شمس

Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

في قراءة النصوص الأدبية

نماذج وتطبيقات

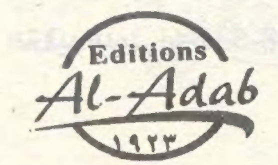
دكتور/ نبيل محمد رشاد

أستاذ الدراسات الأدبية المساعد

بكلية التربية – جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م



مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

42 Opera square - Cairo – Egypt

e.mail: adabook@hotmail.com البريد الإلكتروني





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رشاد، نبيل محمد.

فى قراءة النصوص الأدبية: نماذج وتطبيقات/ نبيل محمد رشاد. -ط١. - القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٣.

١٢٨ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك: ٦ ٥٣١ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الأدب العربى - تاريخ ونقد.

أ - العنوان

٨١٠,٩

رقم الإيداع: ٧١٣٧ لسنة ٢٠١٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978-977-468-531-6

الناشر

مكتبة الآداب

على حسن

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

e.mail:adabook@hotmail.com







إهداء

إلى أبنائي الأعزاء

هشام، ومنال، ومحمد

راجيا أن يستفيدوا مما في هذا الكتاب من قيم أخلاقية عالية، ولغة أدبية راقية، ومعارف متنوعة جمة.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

موضوع هذا الكتاب هو القراءة بعامة، وقراءة النص الأدبي بخاصة، وهو يهدف إلى تنمية المهارات القرائية لدى القارئ العام، والطالب المتعلم، والمعلم الذي يتصدى لتدريس اللغة العربية وآدابها في مراحل التدريس المتعددة، فهو يهدف أولاً إلى تنمية مهارة القراءة الجهرية لدى هؤلاء جميعًا بما ضم في فصليه من نصوص شعرية ونثرية ذات أسلوب جزْل، وبما هيَّأتُ لتيسير قراءة هذه النصوص من ضبط بنيتها الصرفية والنحوية ضبطًا كاملاً.

وهو يهدف ثانيًا إلى تنمية مهارة القراءة الصامتة، تلك القراءة التي يقوم فيها المرء بمطالعة الموضوع بعينيه للوقوف على أفكاره ومضامينه، وذلك بما وضعت على هذه النصوص من شروح وتعليقات.

وهو يهدف ثالثًا إلى تنمية ملكة القراءة الناقدة، تلك التي تتعدى دائرتيْ النطق الصحيح، ومعرفة المعاني والمضامين إلى تحليل الخطاب المقروء للوقوف على مكوناته الأولى من ناحية، وللتعرف على ما به من وجوه الحسن أو القبح من ناحية ثانية، وللتعليق عليه وتبني موقف مؤيد أو معارض له من ناحية ثالثة، وذلك بما كتبت من تحليل لبعض هذه النصوص.

والكتاب كما قلت ينقسم إلى فصلين، أما أولهما فهو بعنوان: في قراءة الشعر والنثر، وقد قمت فيه بقراءة عدد من نصوص هذين الفَنَّين العربيَّيْن، وأول نص اخترته وقرأته في هذا الفصل كان لشاعر جاهلي قديم هو العريان بن سهلة الجرمي، وكان في وصف البخل والكرم، وهو من النصوص التي أوردها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في كتابه ديوان الحماسة، وأتبعت هذا النصَّ وقراءته بنص آخر هو نص أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء الذي أوصى

فيه عند احتضاره ولده مالكًا بوصايا جامعة، وهو من النصوص الرائعة التي أوردها أبو علي القالي في أماليه، وقد حاولت أن أتبين من خلال قراءة هذا النص وتحليله مجموعة القيم الإيجابية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

والنص الثالث في هذا الفصل كان لأبي العلاء المعري من ديوانه سقط الزند، وحاولت من خلال قراءتي له أن أجلو للقارئ صورة أبي العلاء المعري بجانبيها الإيجابي والسلبي.

وانتقلت بعد ذلك إلى الأدب الحديث والمعاصر فقدمت قراءة لديوان أستاذنا الدكتور سعد دعبيس: قصائد للإسلام والقدس، وعرضًا لأقصوصة بكاء الشادوف للأستاذ محمد عبدالحليم عبدالله من مجموعته النافذة الغربية.

ونأتي بعد ذلك إلى الفصل الثاني من فصول الكتاب، وعنوانه: نصوص القراءة الجهرية، وموضوعات المطالعة الصامتة وقد تخيَّرْتُ فيه ثلاثة نصوص من كتاب الأمالي لأبي عالي القالي، وأولها نص مرثد الخير بن ينكف في الدعوة إلى السلام، ومرثد الخير أحد أقيال اليمن في الجاهلية، وقد وصفته المصادر الأدبية والتاريخية بحسن سياسة الرعية، والعمل على إصلاح ذات البين، وكان يدفعه حبه لبني قومه على بذل غاية جهده في لَمِّ شملهم، ورأب صدعهم، ولقد وقع نزاع بين رجلين من كبار رجالات عصره هما سُبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب وقد أدى هذا النزاع إلى أن شمخ كل واحد منهما بأنفه على الآخر، وكاد الشر يتطاير وكاد حَيَّاهما يتقاتلان، فدعاهما مرثد، واستمع منهما، وأصلح بينهما، وبذل لهما النصح والرأي، وخرجا من عنده متآلفين متحابين.

ولقد حكى ما كان من أمر هذه المصالحة من رجالات اليمن مَن حضرها ووعاها، وظلت الأجيال من نسل مرثد تحرص على رواية خبرها اعتزازًا منهم بالانتماء إلى هذا الجد الجليل، ووصلت هذه الرواية إلى أبي علي القالي عن

طريق ابن دريد الأزدي، ورواها أبو عليٍّ على طلبته في حلقة العلم بالمسجد الجامع في قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية بالأندلس؛ ليضع أمام متأدبة العربية من أبناء الغرب الإسلامي صورة من صور الحكم العربي الرشيد.

ولقد أوردت هذا النص، ووضعت عليه أكثر من أربعين هامشًا شرحت فيها غريب ألفاظه، وبيَّنت فيها دقائق معانيه، ورجوت أن يستفيد القراء وطلبة العربية مما فيه من لغة وأدب، وحكمة ومُثُل.

والنص الثاني كان نص خنافر بن التوأم الحميري، وهو نص يحكي فيه صاحبه ما كان عليه في الجاهلية من تشرذم وضياع، حيث كان لصًّا فاتكا، لا تسلم من شره قبيلة، ولا ينجو من فتكه فارس، وكان له رئيٌّ من الجن يهديه إلى طريق الغواية، وبعدما بُعِثَ الرسول ﷺ أسلم هذا الرئي على يد نفر من صالحي الجن، وأقبل على صاحبه خنافر فدعاه إلى الإسلام فأسلم وصار رجل خير وبر بعد أن كان رجل فتك وشر. روى خنافر قصته هذه، وقد أوردتها في كتابي هذا لأنها عندي أشبه ما تكون بلون من ألوان السيرة الذاتية، أو بنوع من أنواع أدب الاعترافات، ولست أشك أيها القارئ أن هذه القصة ظلت تروى بالمشافهة حتى وصلت إلى مسامع أبي بكر بن دريد فألقاها على تلامذته في بغداد في العصر العباسي، وتلقفها أبو علي القالي من أستاذه ليرويها على طلبته ويسجلها في أماليه بوصفها نصًّا أدبيًا يحكي ضربًا متميزًا من ضروب النثر الفني العربي.

ولقد قمت بخدمة النص عن طريق شرح غريب ألفاظه، وبيان خفيٍّ معانيه فيما وضعت عليه من هوامش.

وآخرُ هذه النصوص المختارة من كتاب الأمالي هو نونية ذي الإصبع العدواني في العتاب والفخر الذاتي، وهي قصيدة رنانة طنانة، اهتم بها العلماء القدماء، وأودعوها كتبهم التي ألَّفوها في الاختيارات الأدبية، ومن هؤلاء

المفضل الضبي، وأبو علي القالي، واهتم بها في العصر الحديث مؤلفو كتاب المنتخب من أدب العرب الأساتذة الأعلام طه حسين، وأحمد الإسكندري، وأحمد أمين، وعلي الجارم، وعبدالعزيز البشري، وأحمد ضيف، وأوردوا بعض أبياتها في الجزء الأول من كتابهم، واعتمدوا فيما شرحوا في هوامشهم من ألفاظها على ما ذكره أبو محمد القاسم بن محمد بن بشّار الأنباري في شرحها دون أن يزيدوا عليه شيئًا.

ولقد وضعت على هذه القصيدة أربعين هامشًا لشرح غريب ألفاظها وبيان دقائق معانيها، وسوف يرى القارئ أن هذه الهوامش الشارحة للنص تربو فائدتها على ما صنعه في شرح النص والتعليق عليه أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري على ماله من السابقة والفضل.

ولا يفوتني هنا أن أترحم على فضيلة الوالد(*)، وإني لأرجو من كل من يقرأ كتابي هذا أن يترحم عليه، فلقد كان يحب كتاب الأمالي، وهو الذي هداني إليه، ودعاني إلى قراءته، وحفظ ما يمكنني حفظه من نصوصه الشعرية والنثرية، فرحمه الله رحمة واسعة، وغفر لنا وله.

ويلي هذه النصوصَ الثلاثة موضوع من رجالات العرب، وأوردت فيه مقالين قصيرين كنت قد كتبتهما من ذي قبل؛ أحدهما عن قس بن ساعدة خطيب إياد وحكيمها المشهور في الجاهلية، والآخر عن الأحنف بن قيس سيد تميم وكبيرها في الجاهلية والإسلام.

وختمت الفصل بإيراد بحث كنت قد نشرته من قبل عام ٢٠٠٩ بمجلة كلية

(*) هو فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد رشاد مصطفى حسن الشيخ علي (١٩١٦م - ٢٠٠٨م)، راجع في سيرته ومسيرته، وأثره في بيئته ومجتمعه، وحاجة المثل العليا إليه مقالنا: الشيخ محمد رشاد مصطفى عالم من الزمن الجميل، وهو الفصل الخامس من فصول كتابنا، شخصيات مصرية.

الآداب جامعة الزقازيق عن المقارنة بين تحقيق الأستاذين الجليلين حسين علي محفوظ، ومحمد عبدالقادر أحمد لكتاب أمهات النبيﷺ لمحمد بن حبيب البغدادي.

وإني لأسأل المولى ﷻ أن ينفع بكتابي هذا وأن يجعله في ميزان حسناتي، وأن يوفقني لخدمة اللغة والدين، وأن يغفر لي ما مضى، وأن يسددني فيما بقي؛ إنه ولي ذلك، والقادر عليه، و صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى الله تعالى

د. نبيل محمد رشاد

أستاذ الدراسات الأدبية المساعد

بقسم اللغة العربية – كلية التربية

جامعة عين شمس

■ ■ ■







الفصل الأول

فـــي قراءة الشعر والنثر

١- صورتان البخل والكرم - للعريان بن سهلة الجرمي.

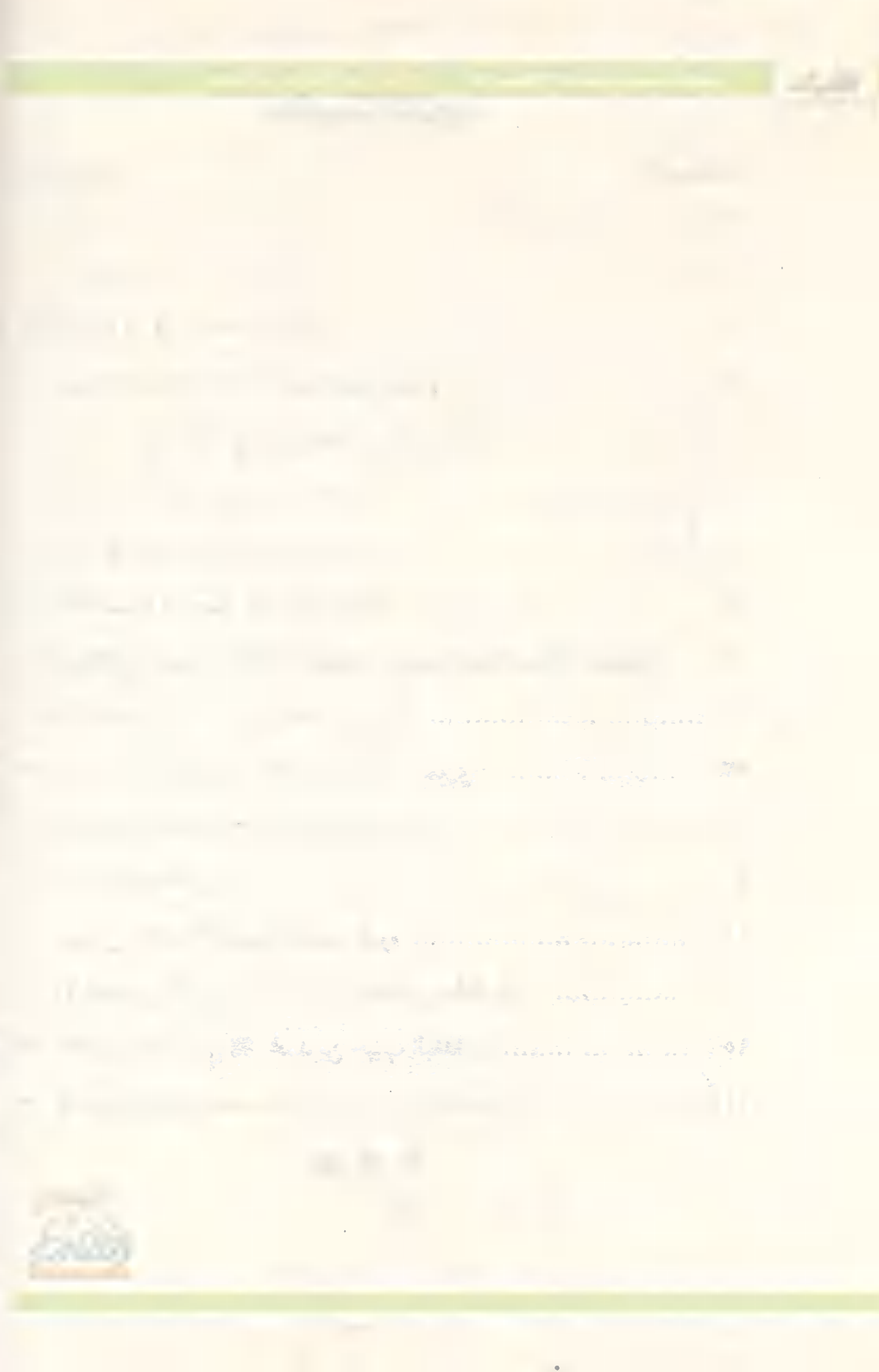
٢- من أدب الوصايا للأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء.

٣- في الفخر الذاتي، لأبي العلاء المعري.

٤- قراءة في ديوان قصائد للإسلام والقدس للشاعر الدكتور سعد دعبيس.

٥- بكاء الشادوف لمحمد عبدالحليم عبدالله.





- ١ -

صورتان البخل والكرم

للعريان بن سهلة الجرمي

١- مررتُ عَلى دارِ امرئ السُّوْءِ حوْلَهُ
لَبُونٌ كعيدانٍ بحائطِ بُسْتانِ[١]

٢- فقال ألا أضحت لَبُونى كما ترى
كأنَّ على لبَّاتِها طينَ أفدانِ[٢]

٣- فَقُلْتُ عَسَى أنْ يَحْوِيَ الجَيْشُ سربَها
ولا واحدٌ يَسْعَى عليها ولا اثنانِ[٣]

٤- ورحْتُ إلى دارِ امرئِ الصِّدقِ حَوْلَهُ
مَرابطُ أفراسٍ وملعبُ فِتْيانِ[٤]

٥- ومنحرُ مِئْناثٍ يُجرُّ حُوارُها
ومَوضِعُ إخْوانٍ إلى جَنْبِ إخْوانِ[٥]

٦- فقلتُ لَهُ إنّي أتيتُكَ راغِبًا
بِذِعْلِبَةٍ تَدْمِى وإنّي امرُؤٌ عاني[٦]

---

(١) اللبون: الإبل ذات الألبان، والعيدان: طوال النخل، والمراد بالحائط: موضع الشجر.

(٢) اللبات: جمع لبة، وهي المنحر. والأفدان: القصور.

(٣) السرب: الجماعة من النساء والأنعام والطير، وأراد بها هنا الإبل.

(٤) امرئ الصدق: هذا تخصيص للممدوح كقولهم رجل الحق وفتى الحرب.

(٥) الحوار: ولد الناقة ومئناث: أي إبل مئناث.

(٦) العاني: الخاضع الذي يُطلب في دم. وذعلبة: الناقة السريعة، وتدمي: أي يخرج الدم من مناسمها لكلالها.

٧- فقـالَ الا اهـلاً وسَـهلاً ومَرْحَبـا
جَعَلْتُك مِنّي حَيْثُ أجْعَلُ أشْجاني[1]

٨- فقُلْـتُ لـه جَـادَتْ عليْـكَ سَـحَابةٌ
بنَـوْءٍ تُنَـدّى كُـلَّ فَغْـوٍ وريحـانِ[2]

٩- وقُلْـتُ سَـقاكَ اللّـهُ خَمْـرَ سُلافَةٍ[3]
بمـاءِ سَـحابٍ حـائرٍ[4] بـينَ مُصْـدانِ[5]

القــراءة

يرسم الشاعر في هذه الأبيات صورتين؛ إحداهما للبخل، والأخرى للكرم، فيذكر أنه مرَّ على دار رجل بخيل 'دار امرئ السَّوْء' حريصٍ على مالـه، حولـه في بستان له إبله، وهي طويلة كالعيدان؛ أي كأشجار النخل الباسقات، وسمينة قد اكتنزت لحمًا وشحمًا، وامتلأت أثداؤها باللبن، وقبل أن ينطق الشاعر بحرف بادره صاحب الدار:

فقـال الا أضـحت لَبُـونى كمـا تُـرى
كـأنَّ علـى لِبَّاتهـا طـينَ أفـدانِ

وهو بهذا يريد أن يصرف الشاعر عن أن يفكر في شيء يناله مـن القِـرى؛ لأن هذه الإبل أصبحت لسمنها ووفور لحمها وشحمها كالقصور الباذخـة الـتي اهتم بها أصحابها فأحسنوا بناءهـا وطلاءهـا حتـى تكـون بهيجـة ممتعـة تسـرُّ

---

(١) الأشجان: جمع شجن وهو بمعنى الحاجة.

(٢) النوء: المطر. والفغو: نور الحناء. والريحان: النبت الطيب الرائحة.

(٣) السلاف: الخمر المعتقة.

(٤) حائر: متردِّد.

(٥) المصدان: جمع مصاد وهي الهضبة العالية.

الناظرين، فهذه الإبل ليست للذبح والسلخ والطبخ، وإنما هي مقصورة على الزينة، يتمتع صاحبها برؤيتها رائحة وغادية في بستانه وحسب، وهنا تمنى الشاعر شيئًا في دخيلة نفسه لما رأى من بخل صاحب البستان، وهو أن تُغِيرَ قبيلةٌ أو طائفة من صعاليك العرب على هذا الرجل وتسلبه هذا المال الوفير الذي حبسه على متعة نفسه، ولا تُبقي له شيئًا يستمتع به منه.

ومرَّ على دار رجل كريم جواد ليس من همه أن يثمّر إبله ليستمتع بها رائحة وغادية في بستانه، وإنما هو رجلٌ مشغول بإحراز المكرمات، حوله مرابط أفراس لما له من عناية بالفروسية، يتدرب عليها، ويدرب عليها الفتيان، ليشبوا أقوياء وأشداء على أعدائهم، وهو سخيٌّ جواد، ينحر النوق العشار الصحيحات، ويقري منها ضيوفه ولا يبخل بها عليهم، فأقبل عليه وقال له: - إنّي أتيْتُكَ راغِبًا' أي في كرمك وجودك، ولقد قطعتُ إليك الفيافي على هذه الناقة المنهكة، وجئتك من مكان بعيد حتى لقد دميت أخفاف ناقتي من طول المسير، وإنّي امْرُؤٌ عاني' أي فقير محتاج إلى عونك وبرك. وهنا تهلل وجه الرجل بالبشر، ورحب بضيفه قائلاً: ألا أهلا: أي حَلَلْتَ بأهلك وعشيرتك، وسهلاً أي نزلت سهلاً من الأرض لينا، ومرحبًا أي نزلت مكانًا رحبًا فسيحًا يسعك ويكفيك حاجتك ومؤنتك، 'جَعَلْتُك مِنّي حَيْثُ أجْعَلُ أشْجاني' أي أنت في عنايتي ورعايتي وقلبي وصدري أقضي حاجتك، وأدبر أمور معيشتك، وأسعى في مصالحك كما أسعى في مصالحي سواءً بسواء، وهنا لهج الشاعر بالدعاء لصاحب الدار بالسقيا والإنبات.

وهذا النص يفصح عن نوعية الحياة التي كان العرب يعيشونها في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، حيث كانوا لا يعرفون الاستقرار، وإنما كانوا دائمي التنقل بحثًا عن العشب والماء اللذين عليهما تقوم حياتهم وحياة إبلهم وأنعامهم، وكان أغلبهم يعيشون في فقر مدقع، ومن هنا برزت قيمة الكرم في



المجتمع الجاهلي، وهي صفة أخلاقية كان يحرص عليها كثير من أثرياء العرب الذين جادت عليهم الحياة بألوان النعيم؛ لأنها كانت السبيل التي ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة في قومه.

■ ■ ■



-٢-

من أدب الوصايا

للأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء

روي أبو علي القالي في أماليه قال: حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثني عمي عن أبيه عن هشام بن محمد الكلبي عن عبدالرحمن بن أبي عبس الأنصاري قال: عاش الأوسُ بنُ حارثةَ دهرًا[١] وليس له ولدٌ إلا مالك، وكان لأخيه الخزرج خمسةٌ: عمرٌو، وعوفٌ، وجُشَمُ، والحارثُ، وكعب، فلما حضره الموتُ قال له قومُه: قد كنا نأمرُك بالتزوُّجِ في شبابكَ فلم تزَوَّجْ حتى حضرك الموت، فقال الأوس: لم يهلِك هالكٌ ترك مِثْلَ مالك، وإن كان الخزرجُ ذا عدد، وليس لمالكٍ ولد، فلعل الذي استخرج العذقَ[٢] من الجريمة[٣]، والنارَ من الوثيمة[٤]؛ أن يجعل لمالكٍ نسلاً، ورجالاً بُسْلا. يا مالك، المنيةَ ولا الدنية، والعتابَ قبل العقاب، والتجلُّدَ لا التبلُّد. واعلم أن القبرَ خيرٌ من الفقر، وشرُّ شاربٍ المشتفّ[٥]، وأقبحَ طاعمٍ المقتفّ[٦]، وذهابَ البصر خيرٌ من كثيرٍ من النظر، ومن كرمِ الكريم الدفاعُ عن الحريم، ومَن قَلَّ ذَلّ، ومن أَمِرَ[٧] فَلّ[٨]، وخير الغِنى

---

(١) دهرا: زمنًا طويلا.

(٢) العذق: النخلة.

(٣) الجريمة: النواة.

(٤) الوثيمة: الحجارة.

(٥) المشتفّ: المستقصي.

(٦) المقتفّ: المتعجل.

(٧) أمر: كثر.

(٨) فل: غلب.



القناعة، وشر الفقر الضراعة، والدهر يومان؛ فيومٌ لك، ويومٌ عليك، فإذا كان لك فلا تبطر[1]، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر[2]، فإنما تُعِزُّ من ترى، ويُعِزُّكَ من لا ترى، ولو كان الموت يُشترَى لسلم منه أهل الدنيا ولكِنَّ الناسَ فيه مستوون: الشريف الأبلَج[3]، واللئيم المعلهَج[4]، والموت المُفيت[5] خيرٌ من أن يقال لك: هبيت[6]، وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة؛ وشرٌّ من المصيبة سوءُ الخَلَف، وكلُّ مجموعٍ إلى تلف، حيّاك إلهك! قال: فنشر[7] الله من مالك بعدد بني الخزرج أو نحوهم[8].

■ ■ ■

---

(١) فلا تبطر: فلا تغل في المرح والزهو.

(٢) سينحسر: سينجلي.

(٣) الأبلج: الواضح.

(٤) المعلهج: المتناهي في الدناءة واللؤم.

(٥) المفيت: الذي يفوِّت على الإنسان بعض متع الحياة.

(٦) هبيت: خرفت أو جننت.

(٧) نشر: بسط.

(٨) الأمالي: ١/ ١٠٢، وقد لفتنى إلى هذا النص الأستاذ الدكتور إبراهيم محمود عوض إذ أورده في كتابه: من ذخائر المكتبة العربية في غضون الحديث عن كتاب الأمالي لأبي علي القالي.

القــراءة

هذا نص من جملة نصوص كثيرة أملاها أبو علي القالي على تلامذته بالمسجد الجامع في قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس في القرن الرابع الهجري.

ونلاحظ بادئ ذي بدء أن أبا علي القالي كان حريصًا في أثناء إملائه على إثبات سلسلة السند، ونلاحظ أن سلسلة السند تنتهي برجل أنصاري هو عبدالرحمن بن أبي عبس، والأنصار لفظ يطلق على أهل المدينة المنورة الذين ناصروا رسول الله ﷺ بعد مهاجره إليها من مكة، ومعروف أن أهل يثرب - التي هي المدينة بعد الهجرة - كانوا يتألفون من قبيلتين كبيرتين هما: قبيلة الأوس، وقبيلة الخزرج، وقبيلة الأوس تنسب إلى جدها الأكبر الأوس بن حارثة، وقبيلة الخزرج تنسب أيضًا إلى جدها الأعلى الخزرج بن حارثة، ومعنى هذا أن قبيلتي الأوس والخزرج في أصلهما المشترك البعيد أبناء عمومة فرّقت الأطماع بينهم فانقسموا إلى قبيلتين متحاربتين متعاندتين.

وموضوع النص يتعلق بشيء من التاريخ البعيد الذي يتصل بأصل هاتين القبيلتين وبدايته، ومن ثم كنت الرواية عن هذا الأنصاري الذي قد يكون من الأوس على ما يغلب على ظني لتحيزه الواضح لهم، أو قد يكون من الخزرج الذين محا الإسلام من صدورهم إرث الجاهلية الذميم.

ومعنى هذا أن مضمون النص محكيّ عن ثقة، خبير به، متيقن منه، ويزيدنا وثوقًا فيه أن هذا المضمون النصي حَدَّثَ به هذا الأنصارِيُّ هشامَ بنَ محمدٍ الكلبي النسابةُ المشهور، وهذا النسابة المشهور حَدَّثَ به طلابه ومريديه، ولو كان هذا الأنصاري متجانفًا عن الحقيقة التاريخية في كلامه لَما قبله هشام بن محمد الكلبي منه، ولَما رواه عنه.

ونتقل إلى أبي بكر بن دريد لنتساءل عن سر اعتنائه بهذا النص وروايته له، إن أبا بكر بن دريد كان إمامًا في اللغة والأدب والأنساب[1]، وهذا النص الذي بين أيدينا موضوعه يتعلق بالأنساب؛ لأنه يتحدث عن أصل الأوس والخزرج وما بينهما من العمومة كما سبق أن أشرنا، ثم هو من ناحية ثانية لون من ألوان الأدب الرفيع، وحريٌّ بنا إن نظرنا إليه هذه النظرة أن يصحح لنا كثيرا من المفاهيم الخاطئة الراسخة في عقول المتأدبين عن النثر الجاهلي وتفاهته وركاكته، ثم هو من ناحية ثالثة يغص بالغريب الذي هو محل اهتمام ابن دريد الأول.

ثم لنا – أيضًا – أن نتساءل عن سر رواية أبي علي القالي لهذا النص في مجالس إملائه في المسجد الجامع بمدينة قرطبة عاصمة الثقافة العربية في الغرب الإسلامي وقتئذ.

هل كان أبو علي يهدف إلى تعريف أهل الغرب بأصل الأنصار الذين ناصروا رسول الله ﷺ، وآووه هو وأصحابه، وأبلوا بلاء حسنًا في الدفاع عنه، ونشر مبادئ الدين الجديد؟

هل كان أبو علي يهدف إلى أن يُدلَّ على علماء قرطبة بمعرفته بغريب اللغة، وأوابدها وشوارد ألفاظها، ليمتاز عنهم، ويتفرد بينهم، وينال الحظوة لدى عبدالرحمن الناصر وولده الحكم فيستأنس ويستعلي؟

هل كان أبو علي يهدف إلى أن ينقُلَ إلى أجيال المتأدبين من المغاربة والأندلسيين نماذج مختارة من روائع الشعر والنثر العربيين ليستعينوا بها على تمثُّلِ العربية، ولينسجوا على منوالها إذا نظموا أو كتبوا؟

كل ذلك جائز، بل كل ذلك كان يرجوه ويبتغيه أبو علي، لكننا نرى أنه كان يتغيا شيئًا آخر إلى جوار هذا كله، هو أن يعرف الغرب بالشرق، أن يجلو للغرب

---

(١) راجع ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي ٢/ ٣٣٩ وما بعدها.

صورة الشرق الفنان، ومن ثم كانت أماليه في أغلبها قصصًا وحكايات، وأخبارا وأشعار تلقي ظلالاً على الشرق: سحره وأساطيره، قيمه وأخلاقه، عاداته وتقاليده، مجتمعاته ونظم شعوبه، ساسته وكبار رجالاته.

وتحكي لنا كتب التاريخ والأنساب والمعارف العامة أن الأوس والخزرج هما ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن عبدالله بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ[1].

ومعنى هذا أنهما من العرب العاربة التي كانت تقطن جنوبي شبه الجزيرة العربية حيث بلاد اليمن السعيد، وتذكر كتب التاريخ أنهما قد هاجرا مع أبيهما بعد تهدم سدّ مأرب إلى يثرب[2]، وأنهما قد حالفا اليهود الذين كانوا يعيشون فيها، وأتاح هذا الحلفُ لحارثة بن ثعلبة وولديه أن يعيشوا آمنين في يثرب فترة من الزمن قويت خلالها شوكتهم، وكثر فيها عددهم.

وتظاهر كتبُ التاريخ والأنسابِ ما جاء في رواية أبي علي القالي من أن الخزرج بن حارثة كان له خمسة من الولد وهم: عمرو، وعوف، وجشم، والحارث، وكعب[3]، وأن الأوس بن حارثة لم يكن له إلا ولد واحد اسمه مالك، ومن مالك هذا تفرقت قبائل الأوس وبطونها كلها[4].

وفي هذا دلالة لها قيمتها على صدق مضمون الخبر الذي رواه أبو علي القالي في أماليه، ولقد كنا بحاجة إلى أن نتلمس في كتب التاريخ والأنساب مثل

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص١٠٩، ويضيف السُّهَيْليُّ حارثة بين عامر، وامرئ القيس، ليكون ابن عامر بن حارثة بن امرئ القيس ...إلخ، ويضيف لفظة ابن بين ثعلبة ومازن، ليكون ابن ثعلبة بن مازن ..إلخ. راجع الروض الأنف ١/ ١٤.

(٢) ابن خلدون: تاريخه المسمى بكتاب العبر ٢/ ٨٣.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ص١٠٩.

(٤) السابق نفسه ص١١٠، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٤.

هذا التأييد؛ لأن فريقا من الدارسين[1] ينظر بكثير من الارتياب والشك إلى الأخبار والقصص والحكايات التي أوردها أبو علي في أماليه عادّين إياها من الأكاذيب، لا سيما تلك التي يدخل في سلسلة إسنادها هشام بن محمد الكلبي، الذي يتهمه غير واحد من علمائنا القدماء بالتدليس والكذب.

وعلى هذا فليس أمامنا - إذن - من سبيل إلى التشكيك في صدق الجانب التاريخي الذي رواه أبو علي القالي عن شيخه ابن دريد في هذا النص، وهذا بدوره يؤدي بنا إلى أن ننظر إلى النص بوصفه وثيقة تاريخية أدبية تحكي جانبًا من تاريخ العرب الاجتماعي عصر الجاهلية، وتدل على منظومة القيم التي كان عليها أهل الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ومن المثير للدهشة أن جميع ما اطلعتُ عليه من مصادر تاريخية لم يشر إلى ما أشار إليه هذا النص الذي بين أيدينا من معايرة بني الأوس لأبيهم بقلة ذريته وذلك حين حضرته الوفاة.

والأسئلة التي تتداعى إلى الذهن وتحتاج إلى إجابات شافية، كثيرة ومتنوعة؛ فقارئ النص يجب أن يسأل نفسه: وممن كانت هذه المعايرة أو المعاتبة؟ ولم كانت؟ وما جدواها في هذا التوقيت والرجل على فراشه يعاني من سكرات الموت وأهواله وشدائده؟

وما دامت المصادر التاريخية قد سكتت عن الإشارة إلى هذه المعايرة أو المعاتبة، فمن البديهي أننا لن نجد فيها شيئًا ذا بال يمكن أن نعتمد عليه في الإجابة عن هذه الأسئلة التي أثرناها، ومن ثم فإننا سنلجأ إلى استنطاق النص -

---

(1) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي حيث أزرى فيه المؤلف على ابن الكلبي في مواضع كثيرة خذ مثلاً ٨/ ٧٤٤، ٨/ ٧٧٧، وانظر: د. إبراهيم عوض: من ذخائر المكتبة العربية ص١٠٢.

ما أمكن- ليفضي إلينا بأسراره التي من الممكن أن تشكل - مع ما استطعنا أن نلملمه من المصادر التاريخية على قلته - محاولة متواضعة للبحث عن إجابات ما طرحناه من أسئلة.

يذكر النص أن الذين قاموا بمعايرة أوس ومعاتبته على عدم التزوج في شبابه هم قومه، ولفظ القوم يطلق في اللغة عىى أهل الرجل وعشيرته من الرجال خاصة. ويدخل فيه النساء على التبعية[1].

وما دام أوس بن حارثة لم ينجب سوى ولد واحد هو مالك، فمعنى هذا أن الذين قاموا بمعايرة أوس هم أبناء أخيه الخزرج وأبناؤهم وأحفادهم الذين كانوا إلى جواره وقت احتضاره؛ إذ ليس من المعقول أن يتركوا عمهم في هذا الموقف العصيب وحده يعاني آلام النزع دون أن يكونوا إلى جواره، قائمين على رعاية شأنه وتفقد أحواله، ومعني هذا أنهم قد شُغلوا بعمهم المحتضر عن شئون حياتهم وتجارتهم في يثرب شغلاً ملأ صدورهم ضيقًا، ونفوسهم حسرة، فخرجت هذه الكلمات المعاتبة في غير وقتها لتتلن قد كنا نأمرك بالتزوج في شبابك فلم تزوَّج حتى حضرك الموت.

وهنا نسأل أنفسنا: هل تزوج الأوس بن حارثة بآخرة من عمره وانجب بعد أن بلغ من الكبر عتيًا ولده مالكًا؟.

قد يكون الأمر كذلك، وهو ما يدل عليه ظاهر هذا النص، وإن كنت أستبعده من رجلٍ محافظ لا يستطيع أن يأتي أمرًا يرى فيه قومه شيئًا ينكرونه، كما أستبعده من رجلٍ كالأوس بن حارثة يعيش في صحراء شبه الجزيرة العربية في مجتمع قبلي يعرف تعدد الزوجات، ويعتز بكثرة النسل، ولا يري بأسًا في التسري بالإماء.



(1) الفيروز آبادي: القاموس المحيط ٤/ ١٦٥.

والأقرب إلى التصور فيما أرى أن الأوس بن حارثة قد تزوج في السن التي يتزوج فيها أترابه في شبه الجزيرة العربية، إلا أنه كان لا ينجب، وقضى شطرًا كبيرًا من حياته مع زوجه بغير ولد، ثم انجب منها ولده مالكًا، ثم ماتت هذه الزوج بعد وضعها مباشرة، أو بعد وضعها بمدة قليلة دون أن تنجب له ابنًا آخر.

وأتصور أن الأوس بن حارثة قد عاش بعدها بغير زوج، حبًا لها، ووفاءً لسيرتها، وإعزازًا لسنوات إقامتها معه، وخدمتها له.

ولا يستغربنْ أحدٌ هذا التصور؛ فإن العرب كانوا شعبًا متحضرًا يؤسس العشرة بعد الزواج على دعائم من الحب والتعاطف والإعزاز[1]، وكانوا يفتخرون بحسن معاملة المرأة، ويعدّون ذلك من دلائل المروءة، وكان بعض رجالات العرب يشترطون على أزواج بناتهن ألاّ يتزوجوا عليهن[2]، وقد جاء في أقوالهم المأثورة "خير الرجال الذي يكرم الحرة، ولا يجمع الضرة"[3]، ولعل زوج أوس بن حارثة كانت من أسرة من تلك الأسر التي تشترط هذا الشرط، وربما كان رفض أوس النزول على رغبة عشيرته في التزوج بغيرها في حال حياتها، ربما كان راجعًا في شيءٍ منه إلى ضرورة الوفاء بما اشترط قومها عليه عند إتمام عقدة النكاح.

وعلى أية حال فإن هذا الجزء التاريخي من النص يدل على مجموعتين متناقضتين من قيم عصر الجاهلية، الأولى، وهي سلبية بطبيعة الحال، وربما كانت تعبيرًا عن السائد المشهور من أخلاق القوم وعاداتهم وتقاليدهم، وتتمثل في

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي ص٢٠٠.

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ص٢٣٥.

(٣) السابق نفسه ص٢٣٥.

التعبير بقلة النسل من الذكور خاصة، والشماتة والتبكيت في غير وقتهما المناسب، والحرص على تعدد الزوجات بداعٍ وبدون داعٍ، في أغلب الأحيان.

والمجموعة الأخرى من القيم، هي تلك القيم الإيجابية التي يمكن استنباطها من سلوك أوس بن حارثة حين شدّ أزره، ولم يَفُتّ في عَضُدِهِ تسافهُ أبناءُ أخيه، وتطاوُلُهم عليه حين حضرته الوفاة، لقد كان في مكنة أوس بن حارثة أن يبسط لسانه بالسوء في هؤلاء السفهاء، كما كان في مقدوره أن يأمر ولده مالكًا بطردهم، ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا، وإنما التفت إلى أنّ له خالقًا قديرًا، بيده مقاليد كل شيء، ولا يعجزه في كونه شيء، يُخرج أشجار النخيل الباسقات من النوى الصغير، ويخرج النار العظيمة التي يستخدمها الإنسان في التدفئة، وفي طهي الطعام، وفي صناعة أدوات القتال والحرب، ويعتمد عليها في سائر شئونه؛ يخرجها هذا الخالق القدير من الحجارة؛ أقول: التفت أوس في هذه اللحظة الحرجة من لحظات حياته إلى هذا الخالق العظيم، وعلّق أمنياته به[1]، ورجا أن يهب لولده مالك نسلاً كثيرًا قويًا، غير ضعيف، ولا هزيل، ولا متحامق، وذلك عندما قال لمعاتبيه: "لم يهلك هالك ترك مثل مالك، وإن كان الخزرج ذا عدد،

---

(١) لا يستغربنّ أحدٌ هذا الكلام؛ فإنّ المولى ﷻ أثبت أن العرب كانت عندهم بقية من ملة إبراهيم عليه السلام، وأنهم كانوا يعرفون الله تعالى حق المعرفة، ولكنهم كانوا عاجزين عن تصور ما يتصف به - جل شأنه - من صفات الكمال والجلال والجمال تصوُّرًا حقيقيًا، فاتخذوا بجهلهم، وضعف عقولهم أصنامًا آلهة لتقربهم من الإله الحق. اقرأ إن شئت قوله عز من قائل: ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ العنكبوت٦١، وقوله جل وعلا: ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ العنكبوت٦٣، وقوله تعالى: ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ الزخرف٩، وقوله تعالى: ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الزمر٣٨، وقوله جل ثناؤه: ﴿ والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر٣.

وليس لمالك ولد، فلعل الذي استخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة؛ أن يجعل لمالك نسلاً، ورجالا بسلاً.

رجا أوس لولده مالك النسل الكثير القوي الذي يستطيع تحمل أعباء الحياة القاسية التي يحيونها في صحراء شبه الجزيرة العربية، المترامية الأطراف، الشديدة الجدب، التي تحدق بساكنيها الأخطار من كل جانب؛ لأن البسل جمع باسل، والباسل هو القوي الشديد الذي حرّم على قرنائه وأنداده الدنو منه، وهو أيضًا المر الذي يذيق أعداءه مرارة بأسه[1].

ولعل القارئ يشاركني الرأي في أن حديث أوس إلى معارضيه بهذه العبارات فيه ما فيه من التعريض بأبناء أخيه الخزرج الخمسة الضعاف المهازيل.

وفي تصوري أن أوسًا قد خشي في هذه اللحظة العصيبة -أيضًا- على ما سيؤول إليه أمر ولده في المستقبل القريب، فإذا بنا نراه يستجمع قوته، ويقبل على ولده، ويلقنه هذه الكلمات الحكيمة الشاملة التي أوصاه فيها بالعزة، والرفق، والصبر، والعمل، والعفة، والمروءة، والقناعة، والتي علمه فيها آداب المأكل والمشرب، وآداب السياسة، وبيّن له فيها حقيقة الدنيا.

الوصية الأولي: يا مالكُ: المنية ولا الدنية.

والمنية هي الموت، والدنية هي الخسة والضعة، وأوس بن حارثة يوصي ولده هاهنا بالترفع والاستعلاء، والإباء والشمم، ويقول له: إن الجاتك تصاريف الزمان إلى أن تختار بين أن تموت كريمًا عزيزًا، أو أن تعيش خسيسًا وضعيًا، فاختر أن تموت كريمًا عزيزًا.

والسر الكامن وراء هذه الوصية وما بعدها من وصايا، هو ما يبتغيه أوس لولده من بعده من مكانة، إن أوسًا يريد أن يرث مالك السيادة من بعده، وهو

(١) الأمالي لأبي علي القالي، مصدر سابق، ١/ ١٠٣.

يعلم أن الناس تُجمع على اختيار الحر العزيز، والشريف الأبيّ سيدًا وزعيمًا، وتأنف أن يلي أمرَها خسيسٌ، أو وضيعٌ، أو حقير، ومن ثمَّ كانت العزة أول خلة أوصى بها أوس ولده في هذه الوصية الجامعة.

الوصية الثانية: والعتاب قبل العقاب.

ونلاحظ أن هذه الوصية الثانية تختلف بعض الشيء عن الوصية الأولى، ففي الوصية الأولى أمرٌ ونهي، أمرٌ بالإقبال على الموت، والاحتفاء به، والسعي إليه، وذلك حين تتعذر على الإنسان/ مالك سبل الحياة الكريمة التي تليق به وبأمثاله من أبناء الرجال الكبار، وفيها نهيٌ عن الوقوع في مخالب الدناءة والخسة، وبراثن السفول والضعة.

أما هذه الوصية ففيها أمران؛ أمرٌ بالعتاب، وأمرٌ آخر بالعقاب، غير أن أوس بن حارثة يلفت نظر ولده مالك إلى ضرورة تقديم العتاب على العقاب، وذلك لما يعلم من طبائع الناس، ولما يرغب فيه من السؤدد لولده، إن أوسًا يعلم أن من الناس من يجدي معه العتاب، ويؤثر فيه القول اللين، فيؤوب إلى الرشد، ويثوب إلى الحق، ويرجع عن التمادي في الباطل، والتخبط في متاهات الضلال، ومن ثمَّ فهو يوجه ولده إلى أن هذا وأمثاله من الأوابين تجب معاتبتهم، ولا تجب مبادرتهم بالعقوبة؛ لأن التعامل معهم بالرفق واللين قد يؤدي إلى استجلاب مودتهم، ودرء عداوتهم، أما أولئك الذين لا يردعهم إلا الزجر والضرب فليس هناك من سبيل أمام مالك بعد معاتبتهم سوى أن يعاملهم بما تجدر معاملتهم به من الشدة والحزم.

وهنا نسأل أنفسنا: ولم وجَّه أوس ولده مالكًا إلى معاتبة هذا الصنف الثاني من الناس قبل مفاجأتهم بالعقوبة؟.

والجواب: لأن أوس بن حارثة يدرك أن ولده مالكًا لا يزال في سِنٍّ

الشباب، وهي سِنٌ تدفع صاحبها دائمًا إلى الطيش والنزق، وتـزين لـه التشفي والانتقام، ومن ثَمّ أراد أن ينبهه إلى قيمة الحلم، وذلك لما يعلم من رغبة القبيلة في أن يكون سيدها حليمًا رفيقًا، ومن أنفتها من أن يلي أمرها طائِشٌ نـزق؛ لأن الحليم الرفيق هو الذي يعمل على رأب الصدع، ويسعى في إصلاح ذات البين، أما الطائش النزق فإنه غالبًا ما يورد قومه موارد الهلاك والتلف، ومن ثمَّ كانـت هذه الدعوة إلى الترفق والحلم في هذه الوصية الثانيـة مـن الأهميـة بمكـانٍ بعـد الدعوة إلى التعزز والترفع في الوصية الأولى.

الوصية الثالثة: والتجلد لا التبلد.

وفي هذه الوصية أمرٌ ونهي، أمرٌ بالتجلد، ونهي عن التبلد، والتجلد هو أن يتكلف الإنسان الجَلَدَ، أي القوة والشدة عندما تحل به النكبات والرزايـا، حتـى لا يشمت به شامت، وحتى لا يتنقصه عائب.

وتكمن قيمة هذه الوصية فيما تشي به من إدراك أوس بـن حارثـة لطبائع الرجال، إنها تدل على أنه يـدرك أن الإنسـان/ مالـك الـذي ينتمـي إلى أصـل كريم، ومَحتدٍ طيب قد تخونه عواطفه أحيانًا فيهتز ويرتعش، ويفزع ويجزع إذا ما أصابه مكروه في نفسه، أو في ذريته، أو في ماله، أو في أحد أقربائه، أو بني قومه، ومن ثمَّ فهو يلفت نظر ذلك الإنسان/ مالك إلى ضرورة التحلي بخلـق التجلـد حتى يكون قدوة وأسوة لغـيره ممـن حولـه، وحتـى يسـتطيع إحسـان التصـرف والتعامل مع ما تدهمه به الأيام من المصائب والشدائد بما يجدر بمثله من الثبات في المواقف، والحزم في القرارات، والعمل على دفع الملمات.

ويأتي النهي عن التبلد في هذا السياق ليـدل علـى تمـام وعـي هـذا الوالـد الجليل، وعميق خبرته بالفوارق الدقيقة، والخيـوط الرفيعـة الفاصـلة بـين غـرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائص الفاضحة.

إن أوسًا يدعو ولده هاهنـا إلى عـدم الإفـراط في التجلـد؛ لأن الإفـراط في

التجلد يؤدي إلى شعور الآخرين ببلادة الإنسان، وتحجر عواطفه، وانعدام إحساسه بما هم فيه من ضيق وكرب.

وإنه لَحَرِيٌّ بمالكٍ، وبمن في مثل مكانته ممن بَوَّأَهُ قومُهُ مقاعِدَ السؤدد أن يلتفت - كما التفت أوسٌ من قبل - إلى هذا الخيط الفاصل الدقيق بين إظهار التماسك والقدرة على التحمل، وإظهار اللامبالاة وانعدام التهيؤ عند استقبال النوائب، وتلقي حادثات الزمان.

الوصية الرابعة: واعلم أن القبر خير من الفقر.

وأوس بن حارثة يوصي ولده هاهنا بالحرص على الاحتراف والعمل؛ لأن الاحتراف والعمل هما السبيل التي تمكن الإنسان من الحصول على المال الذي يكفي به نفسه، ويعول به غيره ممن تلزمهم نفقته، ويدفع به المغارم والديات عندما تنوب النوائب، وتحل الشدائد والخطوب.

والملاحظ أنه بدأ هذه الوصية وما بعدها من وصايا بقوله: واعلم، ثم ساق الكلام بعدها في أسلوب فيه تفضيل شيء على شيء، وهو في هذه الوصية يفضل الموت على المعيشة الضنكي فيقول لولده: إن من الخير للإنسان أن يموت ويقبر على أن يحيا فقيرًا معدمًا يسأل هذا، ويسأل هذا، ويريق ماء وجهه من أجل الحصول من الآخرين على أكلة أو شربة.

وهنا نسأل أنفسنا: ولم بدأ أوس هذه الوصية، وما بعدها من وصايا بقوله 'واعلم'، ولم يبدأ ما سبق من وصايا بمثل هذا الخطاب الآمر بالعلم؟.

والجواب: لأنه هاهنا يفاضل بين أمرين لا يتفق معه في المفاضلة بينهما معظم الناس، فهناك من البشر من يحرص على الحياة بأي شكل، وبأية صورة كانت، فالمهم عنده أن يحيا، وليس يعنيه كيف يحيا، كاليهود الذين قال الله تعالى

فيهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1].

أما ماسبق من وصايا فإن غالبية الناس يتفقون مع أوس في منطقيتها وصوابها، فكلُّ أحدٍ من الناس يدرك بشاعة الدنايا، ويود في دخيلة نفسه أن لا يكون من أربابها، وكل أحد من الناس يعرف أهمية العتاب ويفضله على المؤاخذة والعقاب، وكل بني البشرُ يقدرون قيمة التجلد قدرها، ولا يرضون لأنفسهم أن يكونوا متبلدي الإحساس، منعدمي الشعور.

الوصية الخامسة: وشر شارب المشتفّ، واقبح طاعم المقتفّ.

والمشتف هو الذي يشرب البقية المتبقية في الإناء، والمقتف هو الذي يلتهم الطعام بسرعة، وأنت ترى أن أوس بن حارثة يُعلم ولده آداب السفرة، وإنه ليقول له: إن شر الشاربين هو ذلك الذي يشرب البقية المتبقية في الإناء، وإنما كان هذا شر شارب لأن صنيعه هذا يدل على ما يتصف به من الشراهة والدناءة والبخل، وسيد القوم لا ينبغي له أن يكون شرهًا، أو دنيئًا، أو بخيلاً؛ لأن الشراهة والدناءة تجعلانه صغيرًا في أعين الناس، وتجعلانه قمينا بانتقاصهم من قدره، ومخالفتهم لأمره ونهيه، ولأن البخل والحرص يجعلانه يغل يده فلا يبسطها بتحمل المغارم، ودفع الملمات عن أهله وعشيرته، ومن ثمّ يسوء رأيهم فيه، ولا يفزعون إليه إن أعوزتهم الحاجة إلى الاستغاثة به، واللجوء إلى فناء داره.

ويقول أوس أيضًا: إن أقبح الطاعمين هو ذلك الذي يلتهم الطعام بسرعة دون أن يعطي نفسه فرصة مضغه جيدًا قبل بلعه، وإنما كان هذا أقبح طاعم لسببين: الأول: أن صنيعه هذا ينذر بضياع صحته، ووهن قوته، وتصالح

---

(1) سورة البقرة: آية ٩٦.

الأمراض على جسده، وما على هذا ينبغي أن يكون سيد القوم، وإنما ينبغي أن يكون سيد القوم صحيحًا سليمًا معافى من العلل والأمراض، حتى يستطيع القيام بما يجب عليه القيام به من شئون الزعامة والملك.

هذا عن السبب الأول، أما السبب الآخر الذي يجعل الأكل بسرعةٍ أقبح طاعم فهو يرجع في تصوري إلى بشاعة منظر الأكل بهذه الطريقة في أعين من يشاركونه الطعام، ولأن سيد القوم كثيرًا ما تلجئه الضرورة إلى أن يجلس مع كبار رجالات قومه على موائدهم، فإن أوسًا يلفت نظر ولده إلى ضرورة الأكل بتؤدةٍ وتمهُّل حتى يكتسب حسن السيرة عند الناس بعد انفضاض المجلس؛ لأن الناس بعد انتهاء الطعام، وخروجهم للرواح إلى منازلهم يأخذ بعضهم في الحديث إلى بعض، ويسترجعون ما كان من أمر المائدة، وما كان عليها من أطايب الطعام، وما كان عليه المدعُوُّون إليها من التوقر والتصوُّن والتعفف، أو الشراهة والنزق والطيش في الآنية والصحاف، وهم في استرجاعهم كل هذا تثني ألسنتهم على أخلاق المتعففين المتوقرين، وتلوك أعراض الطائشين غير المتعففين.

الوصية السادسة: "وذهاب البصر خير من كثير من النظر، ومِن كرم الكريم الدفاع عن الحريم".

وأوس يبيِّن لولده هاهنا آداب التعامل مع المرأة، ويُجملها في أمرين: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي، أما السلبي فيتمثل في غض البصر، وعدم إفحاش النظر إلى المرأة، وأما الإيجابي فيتمثل في الدفاع عنها، والذود عن حياضها، وفي هذه الوصية ما يدل على وعي أوس بما يجب أن يكون عليه سيد القوم من العفة والمروءة، إن المرأة تمثل في المجتمع - أيّ مجتمع - شطره، وقد تدفعها ظروف الحياة إلى اللجوء إلى سيد قومها تستصرخه، وتستغيث به، فإذا ما كان سيد القوم طاهر الذيل فإن المرأة تذهب إليه وتقص عليه مظلمتها وهي آمنة

مطمئنة على عِرضها وشرفها وسمعتها، أما إذا كان سيد القوم غير طاهر الذيل، معروفًا بالانحراف والانفلات فإن المرأة حينئذ تؤثر أن تقيم على الخسف، ترضى بالضيم من زوجها أو أخيها، ولا تقبل أن تذهب إلى زعيم قومها شاكية مستصرخة، ومن ثمّ يشيع الظلم، وينتفي العدل، ويفقد المجتمع أمنه وسلامه، وذلك كله يؤدي إلى تفسخه وانحلاله، وانفراط العقد الذي ينتظم أبناءه فيتسلط بعضه على بعض، ثم يتسلطون بعد ذلك على حاكمهم فتسقط مهابته، وتهوي مكانته.

الوصية السابعة: "ومن قلّ ذلّ، ومن امر فلّ".

وأوس بن حارثة في هذه الوصية يُعلم ولده آداب السياسة، ذلك أن زعامة الناس وسياستهم تقوم على مبدأ مهم، الا وهو كثرة الأتباع والأشياع، فإن كان الطامح إلى الزعامة كثير الأتباع والأشياع غلبَ وقهر، وإن كان قليل الأتباع والأشياع ذل وانكسر بتسلط الناس عليه، ومخالفتهم لأمره ونهيه.

الوصية الثامنة: والدهر يومان، فيومٌ لك، ويومٌ عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر، فإنما تعز من ترى، ويعزك من لا ترى".

إن أوس بن حارثة يبين لولده هاهنا حقيقة الدنيا، وطبيعة الأيام، ويقول له إن الأيام لا تجري على وتيرة واحدة من العسر أو اليسر، وإنما تأتي المرء بما يسره أحيانًا، وبما يسوؤه أحيانًا أخرى، وليست العبرة بما تأتي به الأيام من الضيق والشدة، والرخاء والسعة، وإنما العبرة في كيفية تصرف الإنسان إذا أقبلت عليه الحياة، وإذا أدبرت عنه، والإنسان الحكيم الذي يستحق السيادة والسؤدد هو الذي يستقبل إقبال الزمان عليه بعدم البطر، وقلة الإسراف في المرح واللهو، والكف عن المغالاة في التمتع بطيبات الحياة من المأكل والمشرب،

والإكثار من التسرّي بالإماء، والتلهّي عن هذا كله بما يجب أن يُعمل فيه فكره من تدبير أمور المعاش، وسياسة شأن الرعية.

والإنسان الحكيم الذي يستحق السيادة والسؤدد هو أيضًا ذلك الإنسان الذي يصبر على لأواء الحياة، ونوائب الدهر، ويستقبلها غير جازع منها، ولا متبرم بها، ولا ضجر؛ لما استقر في يقينه من أن دوام الحال من المحال.

ويلفت أوس بن حارثة في هذه الوصية نظر ولده إلى أمر مهم، وهو أن الإنسان قد يكتسب احترام الآخرين لوجوده بين ظهرانيهم خوفًا منه، أو طمعًا فيه، ولكنه إذا مات، ووُسِّد الثرى ذهب طمع الناس فيه، وراح خوفهم منه، ومن ثم يصبح ملكًا للتاريخ الإنساني يقول فيه كلمته، وتروي الأجيال سيرته وهي بمأمن من غضبه، وبمنجاة من بطشه، ومن ثم يجب أن يعمل في حياته عملاً يجعله أهلاً لحسن الأحدوثة بين الناس بعد رحيله، ويجعله جديرًا بإعزاز من لم يَرَوْه من أبناء الأزمان التالية.

الوصية التاسعة:" والموت المفيت خير من أن يقال لك: هبيت، وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة؟".

وأوس بن حارثة يوصي ولده هاهنا بعدم الحرص على الدنيا بأكثر من اللازم؛ لأنها ليست دار إقامة، والإنسان فيها هدفٌ لسهام المنية التي لابد أن تصيبه يومًا ما، ويُزهده في أن يرغب في طول العمر؛ لأن طول العمر يؤدي بالمرء إلى الانقطاع عن الأنداد والأتراب، ويجعله غير قادر على التواصل مع الأجيال الجديدة، وحينئذ يصبح هدفًا لانتقاد حفدته، وضيقهم به، وتبرمهم منه، وقد تؤذي نفسه ألفاظٌ تخرج من أفواههم ترميه بالخرف والعجز، ومن ثمَّ يصبح الموت الذي يفوت على الإنسان بعض متاع الحياة خير كما قال أوس بن حارثة حتى لا يشعر المرء بأنه قد صار عالة على غيره، أو بأنه قد أصبح من سقط المتاع.

وشرّ من المصيبة سوء الخلف. وهكذا في ختام هذه الوصية الجامعة يلفت أوس الأذهان إلى أهمية الاعتداد بالتنشئة الاجتماعية للأبناء والأحفاد حتى يشبوا أخيارًا صالحين، ويقول لمالك إن الإنسان بمقدوره أن يحتمل المصيبة التي تحل به، لكنه لا يستطيع أن يتحمل ولدًا عاقًا، سيئ الأخلاق، مرذول الخلال، مذموم السجايا.

كانت تلك هي الوصايا التي قدمها أوس بن حارثة لولده مالك، ولعل القارئ يشاركني الرأي في أنها تمثل أصدق تمثيل منظومة القيم الإيجابية التي كان كبار رجالات المجتمع العربي في عصر الجاهلية ينشئون عليها أبناءهم، ولعل القارئ يتفق معي أيضًا فيما أذهب إليه من أن هذا النص النثري الجاهلي يصح أن يقف شاهدًا ودليلاً على أن الأمة العربية في جاهليتها قد كانت خير أمم الأرض طرًا[1]، وهو الأمرالذي من أجله كان ابتعاث النبي الخاتم محمد بن عبدالله منهم وفيهم، صلوات الله تعالى وسلامه عليه.

■ ■ ■

---

(١) ليس هذا النص وحده هو الذي يدل على ما أوقن، فهناك نصوص نثرية جاهلية أخرى تظاهره فيما يدل عليه، تمتلئ بها مصادر الأدب وسجلات التاريخ، وأسأل المولى - جلَّ شأنه - أن يتفضل ويعينني على قراءتها، وتحليلها، وإخراجها للناس.

-٣-

في الفخر الذاتي

لأبي العلاء المعري (*)

النص

١	أَرَى العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أَنْ تُصَادَا	فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادَا
٢	وَمَا نَهْنَهْتُ في طَلَبٍ وَلَكِنْ	هِيَ الأَيَّامُ لاَ تُعْطِي قِيَادَا
٣	فَلاَ تُلُمِ السَّوابِقَ والمَطَايَا	إِذَا غَرَضٌ مِنَ الأَغْرَاضِ حَادَا
٤	لعلّكَ أن تُشُنَّ بها مُغارا	فتُنْجِحَ أو تُجَشِّمَها طِرادا
٥	مقارعةً أحجّتها العَوالي	مجنَّبةً نواظرَها الرُّقادا
٦	نَلُومُ عَلَى تَبَلُّدِهَا قُلُوباً	تُكابِدُ مِنْ مَعِيشَتِها جِهَادا
٧	إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ ضِرَامًا	فَأَوْشِكْ انْ تُمُرَّ بِهَا رَمَادَا
٨	فَظُنَّ بِسَائِرِ الإِخْوَانِ شَرًّا	وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى سِرٍّ فُؤَادَا
٩	فَلَوْ خَبَرَتْهُمُ الجَوْزَاءُ خُبْرِي	لَمَا طَلَعَتْ مَخَافَةَ أَنْ تُكَادَا

(*) راجع في التعريف بأبي العلاء:

١- كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء بإشراف د. طه حسين، طبع هيئة الكتاب.

٢- أبو العلاء المعري د. بنت الشاطئ، سلسلة أعلام العرب.

٣- ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين، نشر دار المعارف.

٤- صوت أبي العلاء للدكتور طه حسين، سلسلة اقرأ.

٥- مع أبي العلاء في سجنه للدكتور طه حسين، نشر دار المعارف.

٦- دار السلام في حياة أبي العلاء للدكتورة بنت الشاطئ، نشر بغداد.

٧- شروح سقط الزند للخوارزمي والتبريزي، وابن السيد البطليوسي، خمسة مجلدات، طبع دار الكتب المصرية.

القراءة

(١)

أَرَى العَنْقَـاءَ تَكْبُـرُ أَنْ تُصَـادَا   فَعَانِـدْ مَـنْ تُطِيـقُ لَـهُ عِنَـادَا

وَمَـا نَهْنَهْـتُ فِي طَلَـبٍ وَلَكِـنْ   هِـيَ الأَيَّـامُ لاَ تُعْطِـي قِيَـادَا

فَـلاَ تَلُـمِ السَّـوَابِقَ والمَطَايَـا   إِذَا غَـرَضٌ مِـنَ الأَغْـرَاضِ حَـادَا

لعلّـكَ أن تَشُـنَّ بهـا مُغـاراً   فتُـنْجِح أو تجشّـمَها طِـرادا

مقارعـةً أحجّتهـا العَـوالي   مجنّبـة نواظرَهـا الرّقـادا

من أول بيت من أبيات القصيدة نجد الأنا متضخمة عند أبى العلاء، ونجده يشعر بنفسه شعورًا زائداً، ويدرك قيمة ما حصّل في حياته من تجارب مع بني البشر، لذا رأيناه يبدأ القصيدة ببيت من الأبيات التي تنبئ عن حكمته وخبرته:

أَرَى العَنْقَـاءَ تَكْبُـرُ أَنْ تُصَـادَا   فَعَانِـدْ مَـنْ تُطِيـقُ لَـهُ عِنَـادَا

ولاحظ دلالة الفعل (أرى)، وهو الكفيف الذي لا يبصر، إن الرؤية – هنا – إشمل من الرؤية البصرية، إنها التجربة الواسعة، والخبرة الحياتية العريضة يصوغها في ثوب شعري فلسفي، فهو يرى أن **العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أَنْ تُصَادَا**، والعنقاء طائر أسطوري لا وجود له، كانت العرب تزعم إنها تُعْنِقُ بصيدها فلا يُقدرُ عليه[1] ومن ثمّ فهي في مخيلتهم مثال الترفع والاستعلاء، والقوة والبطش في آن واحدٍ معًا، فهي قوية وباطشة تستطيع اختطاف أيّ شيء حتى الأناسي[2]، ثم هي مترفعة ومتأبية لا يستطيع الإنسان أن يستردّ منها شيئًا اختطفته فضلاً عن

---

(١) البطليوسي: شروح سقط الزبد ٢/ ٥٥٣.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

أن يحاول صيدها والانتفاع بها، ولهذا ضربوا بها المثل للشيء العصيّ الممتنع[1]، واستخدمها أبو العلاء في مطلع هذا النص بالمعنى نفسه الذي تعارف عليه العرب؛ حيث جعلها رمزًا للقوة القاهرة، أو الأمر الذي لا طاقة للإنسان بدفعه، ولا قدرة له على مجابهته، وهو بهذا يوظف ما تناهى إلى سمعه من أساطير العرب في شعره توظيفًا يخدم الفكرة التي يريد أن يعبر عنها، أو الرسالة التي يريد أن يوجهها إلى المجتمع، وآية ذلك أنه اتجه في الشطرة الثانية من البيت نفسه إلى المخاطب موجهًا له الأمر على سبيل النصح والإرشاد قائلاً: "**فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادَاً**".

ويأتي فعل الأمر (عاند) في هذا الشطر من البيت لينفي نفيًا تامًا ما قد فهمته الدكتورة بنت الشاطئ من أن أبا العلاء قد بدأ قصيدته بالاستسلام المر[2]، ذلك أن الاستسلام المر في رأينا يعني أن يتنازل الإنسان لخصمه عن كل شيء، وأن يكف عن بذل أية مقاومة، وأن يقف مكتوف الأيدي أمام تصاريف الأقدار، وما إلى هذا دعا أبو العلاء، وإنما دعا إلى العناد الذي هو الإصرار على الرأي، ومخالفة الآخرين، ومحاولة تغيير الواقع المر، ولسنا بحيث ننتظر من شاعر كأبي العلاء أن يدعو إلى معاندة القدر، فما إلى هذا من سبيل، يدرك هذا أبو العلاء، ويدركه كلُّ أحد من الناس، ولو دعا الشاعر إليه لما كان لدعوته وجه من المنطق، أو حظ من الصواب، لكن الذي أكسب دعوته قيمتها أنها جاءت منطقية إلى حد بعيد، عاند، ولكن من تطيق له عنادا، وهنا يأتي التعبير بالفعل (تطيق) دالاً على رغبة شاعرنا في أن يحتفظ الإنسان لنفسه بشموخها وشممها، إن أبا العلاء لم يقل "فعاند من تستطيع له عنادًا" وإنما قال "من تطيق له عنادًا"، والفعل أطاق له دلالة في اللغة، وهي تحمل الأمر بمشقة بالغة، وعسر شديد،

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) بنت الشاطئ: أبو العلاء المعري ص٦٢.

ومعنى هذا أن الشاعر يريد من الإنسان أن يحقق لونًا من التوازن بحيث يكفكف من غلواء نفسه حتى لا يذهب به الغرور مذاهب الغواية والضلال فيعاند من لا يقوى على معاندته، وفي الوقت ذاته يحتفظ لنفسه بعزتها وكرامتها، إنه لا يريده مستسلمًا دائمًا، ولا معاندًا دائمًا، وإنما يريده متطامنًا حين يحسن التطامن، ومعارضًا أو معاندًا حين تحسن المعارضة أو المعاندة، وفي هذا البيت من البديع لونًا، أحدهما التصريع في قوله: تصادا، وعنادا، والآخر التجنيس في قوله: فعاند، وعنادا. ثم يأتي البيت الثاني من أبيات النص:

وَمَا نَهْنَهْتُ فِي طَلَبٍ وَلَكِنْ   هِيَ الأَيَّامُ لاَ تُعْطِي قِيَادَا

وتسأل نفسك عن الرابطة التي تربطه بالبيت الأول، وسرعان ما تتبين الوشيجة القوية بين البيتين لا سيما إذا لاحظت مقدرة الشاعر الفائقة على مزج ما هو ذاتي بما هو غيريٌّ، ففي البيت الأول قدَّم لنا رؤيته الذاتية في الحياة والقدر في الشطرة الأولي، ثم اتجه بالكلام إلى المخاطب ناصحًا وموجهًا في الشطرة الثانية، ثم ها هو ذا في البيت الثاني من أبيات النص يقدم لنا وصفًا ذاتيًا لما جرى منه مع الزمان فيقول "وَمَا نَهْنَهْتُ فِي طَلَبٍ"، أي وما قصَّرْت في سعي، ولاحظ دلالة التعبير بالفعل (نهنهت) فهو يتكون من حرفين يتكرران على التوالي هما النون، والهاء، وفي هذا دلالة على أن أبا العلاء قد أفرغ وسعه في سبيل تحقيق ما يهدف إليه من معالي الأمور، فلقد كان يسعى المرة بعد المرة ليصل إلى ما يرجوه لنفسه من الأيد والمجد، ولاحظ ما تدل عليه الهاء الساكنة في هذا الفعل أيضًا من انقطاع النفس الذي يوازي حتمًا كلال الروح والجسد في سبيل تحقيق غاية سؤله، والوصول إلى منتهى أمله[1]، ومعنى هذا أن أبا العلاء

---

(١) عبّر ابو العلاء عن هذا المعنى في غير قسيدة من قصائد السقط كما في قوله:

واغدو ولو أنَّ الصباح صوارمٌ   وأسري ولو أنَّ الظلام جحافل

وقد شرحه البطليوسي فقال: يقول لايثنيني شيءٌ عن مطلب أرومه وأحاوله. شروح سقط الزند ٢/ ٥٢٥.

قد نفى التقصير عن نفسه، فهل أدرك ما يريد؟ ويأتي الجواب على هذا السؤال بالنفي، تفهم هذا من قوله بعد ذلك "ولكن هي الأيام لا تعطي قياداً" لأن التعبير بالحرف (لكن) يفيد الاستدراك الذي هو "دفع توهُّمٍ ناشئٍ من كلام سابق"[1]، ذلك أن نفيه التقصير عن نفسه في قوله "وما نهنهت في طلب" يوحي بأنه قد حصل على ما يريد، فأراد أبو العلاء أن يدفع هذا الفهم، وأن يثبت نقيضه، فأتى بالحرف "لكن".

وتسأل نفسك عن السِّرِّ الكامن وراء عدم إدراك الشاعر لمبتغاه لتجد الجواب في قوله: "هِيَ الأَيَّامُ لاَ تُعْطِي قِيَادَا"، ولاحظ دالة التعبير – هاهنا – بالجملة الاسمية، وكيف تناسبت تناسبًا تامًّا مع المعنى الذي يريد أبو العلاء التعبير عنه، إن الشاعر لا يريد أن يصف الأيام بالقسوة، لكنه يريد أن يقول إن شأنها هو القسوة، هكذا كانت في الأحقاب الماضية، وها هي ذي – في زماننا – على ما هي عليه من العناد والتمنع، وستظل على حالها هذه حتى آخر الدهر، ومعنى هذا أن شأنها ثابت، وأن طبعها لا يتغير، وكل هذه المعاني قد أوحت بها اسمية الجملة؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستقرار.

نستطيع أن نقول إذن إن أبا العلاء قد أرجع إخفاقه في الوصول إلى مبتغاه إلى عوامل خارجية عنه تتمثل في مغالبة الحياة له، وهو يرجع – أيضًا – إخفاق أي مجتهد في الوصول إلى ما يريد إلى هذا السبب الخارجي ذاته، ولهذا توجه بالحديث إلى المخاطب في البيت الثالث قائلاً له:

فَلاَ تَلُمِ السَّوابِقَ والمَطَايَا ... إذَا غَرَضٌ مِنَ الأَغْرَاضِ حَادَا

وها هو ذا أبو العلاء قد عاد هذه المرة لينهى مخاطبه عن لوم السوابق

---

(1) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٢/ ٢٧٩، وابن هشام في مغنى اللبيب بهامش حاشية الدسوقي ١/ ٢٩٤.

والمطايا، والسوابق هي الخيول، والمطايا هي الإبل، واللوم هو التوبيخ والتقريع على التقصير والتفريط في الأخذ بالأسباب المؤدية إلى النجاح، والسوابق والمطايا في هذا البيت ليست مقصودة بذاتها؛ فالسوابق كانت عدة الحرب في الزمن القديم، والمطايا كانت سفن الصحراء التي يجتاز العرب عليها فيافيهم، وكأني بأبي العلاء يريد أن يشير إلى أن الحياة أشبه ما تكون بمعركة حامية الوطيس يحتاج فيها الإنسان إلى كل ما معه من أسلحة ليحرز النصر، أو كأنه يريد أن يقول إن الحياة أشبه ما تكون برحلة سفر بعيدة الشُّقَّة يحتاج فيها الإنسان أن يكون رفيقًا بدابته أو ناقته؛ حتى يجتاز رحلته في أمان، وحتى لا يكون كالمنبتّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

وعلى هذا فالسوابق والمطايا ما هى إلا رموز للوسائل والأدوات، والمواهب والملكات التى يغالب بها الإنسان أهوال الزمان وشدائده، ومكائد الخلان وشرورهم، والشاعر -هنا- ينهى مخاطبه عن أن يعود باللائمة على سوابقه إذا لم ينتصر في معركة من معارك الحياة، كما ينهاه عن أن يعود باللائمة على خيوله إذا لم تستطع أن تبلغه ما يريد، وكأني به يقول له: كن واثقاً بنفسك، وبوسائلك في تحقيق الفوز والظفر فما كان عدم المقدرة على تحصيل المراد بسبب الوسائل والأدوات، وإنما كان سببه معاندة الحياة، ومغالبة القدر للإنسان.

ولاحظ دلالة التعبير بـ(إذا) التي تحمل معنى الفجائية، والمباغتة، والهجوم[1]، ويكون ما بعدها أمراً غير متوقع الحدوث في الغالب، ولاحظ دلالة تنكير لفظة (غرض) إذ توحي بالتصغير والتحقير اللذين يوجبان عدم التوقف بكاءً على الضائع، وتحسراً على مُضِيِّ فرصته؛ إذ من المفروض ألاّ تتعلق همة

---

(١) حاشية الدسوقى على مغنى اللبيب ١/ ٩٣.

الإنسان فى هذه الحياة بغرض واحدٍ مهما كانت درجته من السمو والرفعة، بل يجب أن يكون كثير الطموحات والأغراض، يحقق منها ما يحققه، ثم يتجاوزه إلى تحقيق غيره مما يرجوه ويتعلق به من الآمال والأحلام، وهذا ما أكده – أيضاً – استخدام لفظة "من" الدالة على التبعيض فى البيت.

لعلّكَ أن تَشُنَّ بها مُغاراً فتُنجِحَ أو تُجشّمَها طِرادا

مقارعةً أحجّتها العَوالي مجنَّبةً نواظرَها الرّقادا

ولقد تحدث صاحبنا في هذين البيتين عن السبب الذي من أجله كان النهى عن لوم السوابق والمطايا في البيت السابق فقال: لعل هذه السوابق والمطايا التي تعودت أن تنحي عليها باللائمة، لعلها تكون سببًا من أسباب نصرك وظفرك في قابل الأيام حين يحالفك التوفيق، ويوافقك القدر، فتشن بها غارة ناجحة على قوم من أعدائك فتصيب منهم ما تريد، أو تدفع بها بأس قومٍ يريدون الإغارة عليك فتطردهم، وتجنب نفسك وقومك شرورهم.

ولقد شغل الخوارزمى نفسه في شرحه على هذين البيتين بما فيهما من مسائل نحوية، حيث توقف عند قول أبى العلاء "لعلك أن تشن" إذ لاحظ أنه عامل (لعل) معاملة (عسى) لأنه قد جعل خبرها الفعل المضارع المقرون بأن كخبر عسى[1]، كما أدرك بقراءته الواعية لنصوص سقط الزند أن الشاعر أحيانا يُجري (عسى) مجرى لعل[2].

وشغل نفسه أيضاً بالأوجه المختلفة التى يمكن أن تعرب بها الشطرة الأولى من البيت الثانى "مقارعة أحجتَها العوالى" فقال "ويروي أحجتُها بالرفع وهو فاعل مقارعة، والعوالى في مقام النصب على أنه مفعولها، ويروي أحجتها بالنصب

---

(١) شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٧.

(٢) السابق نفسه ٢/ ٥٥٧.



وهو مفعول مقارعة، والعوالى فى مقام الرفع بأنه فاعلها. وفاته أن ينبه على ما نبه عليه التبريزى من وقوع أبى العلاء المعري فى الضرورة فى حالة إعراب الأحجة فاعلاً، والعوالى مفعولاً[1]، ولم يشر أيٌّ منهما إلى الأثر الذي يحدثه هذان الوجهان من الإعراب فى معنى البيت.

وفى رأينا أن العلاقة بين هذين البيتين ، والبيت السابق عليهما علاقة تعليلية فالشاعر ينهى مخاطبه عن أن يعود باللائمة على سوابقه وخيوله إذا لم يستطع أن يحقق غرضا من أغراضه، وذلك استبقاءً لها، حتى تظل معوانا له على ما يريد من جلب الخير لنفسه، أو دفع الشر عنها، ولكأني بأبي العلاء يريد أن يقول: أن الإنسان لا يزال بخير مادام واثقاً من مواهبه وملكاته لأن هذه المواهب والملكات سكتون بمثابة الحافز أو المثير الداخلى الذى يدفع صاحبه دفعاً إلى النهوض من كبوته، وآية ذلك أنه بين حال السوابق والمطايا فقال:

مقارعةٌ أَحِجَّتَها العَوالي مُجَنَّبَةً نواظِرَها الرّقادا

والقرع هو الضرب، والأحجة أوائل الجباه من الخيول والإبل، والعوالي جمع عالية، وهى أعلى القناة، ولعلك تلاحظ أنه جعل أحجة السوابق والمطايا هى التى تقرع العوالى، ولم يجعل قرعها للإنسان الذي يسير السوابق والمطايا ويركبها، ويضرب من فوقها بسيفه، أو بسهمه، أو برمحه، وهذا فيه ما فيه من الدلالة على إصرار السوابق والمطايا على الفوز والغلبة، أو جعل العوالى هي التي تقرع أحجة الخيول والإبل، وهذا فيه ما فيه من الدلالة على شدة سرعة هذه الخيول والمطايا، وأنها مندفعة نحو غايتها لا تلوي على شيء، ولا تعبأ بما قد يقابلها من مخاطر وأهوال، أو بما قد يصيبها من الأذى، أو الإرهاق والتعب، وذلك لشدة صلابة عظام حواجبها.

---

(١) السابق نفسه ٢/ ٥٥٧ - ٥٥٨.

وعلى هذا فالروايتان متساويتان - كما نرى - فى الدلالة على المعنى الذى يقصده أبو العلاء وليست إحداهما بادل عليه من الأخرى كما زعم الخوارزمى فى شرحه للبيت وتعليقه عليه.

ولعل هذا التفسير يؤدى بنا إلى ان نزعم أنّ أبا العلاء لم يقع في الضرورة وقوع مضطر ألجاه الوزن إلى ارتكاب الخطأ، بل وقع فيها وقوعا اختياريًا مقصودا.

وقد أدى صوت حرف القاف فى قوله 'مقارعة' فى الشطرة الأولى من هذا البيت دوراً مهما فى نقل الإحساس بهذا المعنى إلى القارئ أو المتلقي، فهو صوت من الأصوات الجهرية، وإلى جوار ذلك له مجموعة أخرى من الصفات منها الشدة، والاستعلاء، والانفتاح، والإصمات[1] وكلها تناسب الموقع والمقام، أو المعنى الشعرى للبيت، فإذا انضمت إلى هذه الوظائف الصوتية وظيفة بنية الكلمة الصرفية أدرك المتلقى أن هناك - حقيقة - حرباً، أو صداما شديداً بين طرفين متنافسين: الطرف الأول وتمثله أحجة الخيول والمطايا، والطرف الثاني وتمثله العوالى، وكل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يهزم الآخر، ويفل قوته.

وأدى التنوين فى قوله 'مقارعة' فى أول الشطرة الأولى من البيت، وفي قوله 'مجنبة' في أول الشطرة الثانية منه إلى إعطاء جرس موسيقي للكلام يماثل دقات الطبول التي كان القدماء يبدأون بها إيذاناً أو إشعاراً ببدء المعركة.

ويأتي الشطر الثاني من البيت أكثر دلالة على تحول المواهب والملكات الذاتيه للفرد إلى مثير داخلي يُحَفّزه على مواصلة العمل لبلوغ الأمل إذ يقول:

مجنبة نواظرها الرقادا

ومجنبة اسم فاعل يعمل عمل فعله، وفاعله ضميرٌ مستتر جوازاً تقديره هى،

---

(١) نهاية القول المفيد ص٧٠.

يعود على السوابق والمطايا المذكورة فى البيت السابق، ونواظرها مفعول به أول، والرقادا مفعول به ثان، والتجنيب هو الإبعاد والعزل، يريد أبو العلاء أن يشير إلى أن هذه السوابق والمطايا تمنع عيونها من الإخلاد إلى النوم طلبا للراحة والهدوء حتى يحقق صاحبها ما يصبو إليه، أو حتى ينجح فيما سبق أن أخفق فيه من أهداف أو طموحات.

ومن الغريب الذى لا ينقضى منه العجب أن يستدل الخوارزمي بهذا البيت، وبالبيت الذي قبله على أن غاية أبى العلاء من الأيام هى الملك قائلاً: "ألا ترى كيف وصفه عند الغارة والطراد بدرك المنى ونيل المراد."[1].

والسؤال الذي لم يسأله الخوارزمي لنفسه هو مُلْك ماذا؟ أيقصد أن أبا العلاء كان يريد أن يمتلك معرة النعمان؟ ومتى كانت معرة النعمان مملكة أو إمارة؟ أم يقصد أن شاعرنا كان يريد أن يمتلك حلبا التى سيطر عليها موالي الحمدانيين الذين كانوا يستجدون المعونة من الروم من جهة، وكانت تظاهرهم الدولة الفاطمية في مصر من جهة أخرى؟[2].

ولو سأل الخوارزمي ما ورد إليه من أخبار أبي العلاء، ومن أخبار أهله وأسرته، لعلم أنهم كانوا أبعد ما يكون عن الملك، وأقرب ما يكون إلى العلم والفتيا، والأدب والشعر، فلقد كان جد جده سليمان ابن أحمد بن سليمان قاضيًا، وكان عبدالله بن سليمان بن محمد – وهو والد شاعرنا – كان قاضيًا وشاعرًا، ولشاعرنا من أبيه أخوان شاعران هما أبو المجد محمد بن عبدالله، وأبو الهيثم عبدالواحد بن عبدالله[3]، وقد افتخر بهم جميعًا أبو العلاء في مثل قوله ردًا

---

(١) شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٥.

(٢) أبو العلاء المعرى، بنت الشاطئ ص٨٧.

(٣) إرشاد الريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي، نقلاً عن تعريف القدماء بأبي العلاء ص٦٨، ٦٩.

على بعض حُسّاده[1]:

بـأيِّ لسـان ذامـني متجاهِـلٌ	علـيَّ وخفـقُ الـريح فيَّ ثنـاءُ
ومذ قال إن ابنَ اللئيمـة شـاعرٌ	ذوو الجهلِ مات الشعر والشعراءُ
تُساوِرُ فَحْلَ الشعر أو لَيْتَ غابِهِ	سـفاهًا وأنـت الناقـة العشـراءُ
أتمشي القوافي تحت غير لوائنا	ونحـن علـى قوَّالهـا أمـراءُ

كما كان خاله أبو القاسم علي بن محمد بن سبيكة شاعرًا إذ نفهم ذلك من قول المعري له[2]:

نراسِـلُكَ التَّنَصُّـحَ في القـوافي	وغـيرك مَـنْ نعلِّمُـهُ السَّـدادا
فـإن تقبـلْ فـذاك هـوى أنـاسٍ	وإن تـردُدْ فلـم نـألُ اجتهـادا

ولو دقق الخوارزمي النظر فيما وصل إليه من روايات تتعلق بصفات أبي العلاء الخِلْقِيَّة والنفسية والاجتماعية لعلم أن مثله لا يصلح أن يكون ملكًا، أو أميرًا، أو وزيرًا لما كان عليه من دمامة وتجدُّر ونحافة، وكانت إحدى عينية نادرة، والأخرى غائرة[3]، ولعلم - أيضًا - أنه لم يكن من ذوي الأحوال في الدنيا، وإنما خلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه، وكانت له نفسٌ تشرف عن تحمل المنن، فمشى حاله على قدر الموجود، فاقتضى ذلك خشن الملبوس والمأكل، والزهد في ملاذ الدنيا[4]، ولعلم أن أبا العلاء قد يمم وجهه شطر بغداد لتحقيق هدفين اثنين: الأول منهما نص عليه بنفسه حين قال في جملة رسالة بعث بها إلى أهل بلدته معرة النعمان في إثر خروجه من بغداد "وأحلف ما سافرت

(١) شروح سقط الزند ١/ ٣٩٣ وما بعدها.

(٢) شروح سقط الزند ٢/ ٨٠٨، ٨٠٩.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان، نقلا عن تعريف القدماء ص١٨٣.

(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي نقلاً عن تعريف القدماء ص٣١.



أستكثر من النشب، ولا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم[1]، والهدف الآخر من هدفي رحلته البغدادية أنبأنا عنه الرواة حين زعموا أنه قصد من أكابرها الإعانة بجاههم على بلوغ أغراضه من كفِّ مَنْ تطرق أذاه إليه في أمر وقفه[2].

وفي يقيني – بعد هذا الذي قدمناه – أن الخوارزمي قد أبعد المرمى حين ادعى أن مطلوب صاحبنا من الأيام هو الملك.

ولا يصح عندنا أيضًا أن يكون مطلوبه هو الغنى لما ورد من الروايات التي تدل على شدة حيائه، وعفة نفسه، وقناعته[3].

وأغلب الظن أنه كان يعبر في هذا النص، وغيره من نصوص ديوانه سقط الزند عما يشعر به من حزن عميق، وأسى دفين على عدم تحقق أمنيته التي كان يحلم بها في هذه المرحلة من مراحل حياته، وهي مرحلة الشباب.

والسؤال الذي يطرح نفسه هاهنا: وما هي هذه الأمنية؟ لكن الإجابة القاطعة تكاد تكون مستحيلة، وأتصور أن ربما كانت هذه الأمنية هي تعلقه النفسي – على الأقل – بالرغبة في شفاء عينيه مما أصابهما من العمى، أو قد تكون هذه الأمنية هي أن لا يحول العمى بينه وبين المكانة اللائقة به التي يجب أن يتبوأها في المجتمع الحلبي، أو قد تكون أمنيته هي أن تصفو الحياة في حلب مما يكدرها من عدم خلوصها لأهلها نظرًا للفساد السياسي الذي أحدثته الزمرة الحاكمة لها، أو قل المتسلطة عليها في هذه الفترة أو المرحلة من حياة أبي العلاء.

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي، نقلاً عن تعريف القدماء ص٩٢.

(٢) إنباه الرواة للقفطي نقلاً عن تعريف القدماء ص٣١.

(٣) راجع في ذلك الفصل الذي كتبه في ذلك ابن العديم، وهو آخر فصول الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري. انظره في تعريف القدماء ص٥٧٧.

لكن الأيام لم تعنه على تحقيق ما أراد، فلم تبرأ عينه مما أصابها، ووقف في مواجهته الشباب الحلبيون يناصبونه العداء حسدًا من عند أنفسهم، ويغمطونه حقه اللائق بعبقريته وموهبته[1]، ولم تصف الحياة في حلب، ولم تعد كما كانت عليه في عهد سيف الدولة الحمداني، وربما كان هذا كله أو بعضه من الأسباب الكامنة وراء ذهابه إلى بغداد، دار العلم على حدّ قوله، وتصريحه برغبته في الإقامة بها لعله – إلى جوار الاستزادة من العلم – يجد فيها من التقدير ما افتقده بين أهله وإخوانه، ويرى فيها من صفو الحياة ما يلهيه أو يسليه عن تكدُّرِها في حلب.

بقي أن نشير إلى المخاطب الذي توجه إليه الشاعر آمرًا، وناهيًا ومتحدثًا في هذه الأبيات الخمسة، وفي غيرها مما سيأتي من بقية أبيات النص، وأغلب الظن أن أبا العلاء كان يتحدث بهذا الكلام إلى نفسه، وبالتالي يكون الكلام كله من باب 'عتاب المرء نفسه' كما يقول البلاغيون، وكأن هناك صراعًا داخليًا يعتمل في صدر أبي العلاء، أو كأن أبا العلاء كان واقعًا تحت تأثير عاملين ضاغطين أحدهما حافز ومثير يدفعه إلى تحدي واقعه وصولاً إلى تغييره، والآخر محبط وموئس يُذَكِّرُهُ دائمًا بعجزه، وبما جلبه عليه طموحه من خطوب وآلام.

(٢)

نُلُومُ عَلَى تَبَلُّدِهَا قُلُوبًا ... تُكَابِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادَا

إذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ ضِرَامًا ... فَأَوْشِكْ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادَا

فَظُنَّ بِسَائِرِ الإِخْوَانِ شَرًّا ... وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى سِرٍّ فُؤَادَا

---

(١) راجع ذلك في الرواية التي أوردها ابن العديم في الإنصاف والتحري، وهي موجودة بتعريف القدماء ص٥٥٩، ٥٦٠.

فَلَــوْ خَبَــرْتَهُمُ الجَــوْزَاءُ خَبْــرِي لَمَـا طَلَعَـتْ مَخَافَـةَ أَنْ تُكَـادَا

وبعد أن تحدث الشاعر في الأبيات الخمسة السابقة عن موقفه من لوم السوابق والمطايا التي تمثل الجانب الماديّ من قدرات الإنسان شرع يتحدث عن موقفه من لوم القلوب بوصفها تمثل الجانب المعنوي من تلك القدرات، وقد استخدم الفعل المضارع "نلومُ" واستخدام المضارع هنا له دلالته على التجدد والاستمرارية، فهذا اللوم لم يقع مرة أو مرتين، ولم يكن فيما سبق من مواقف، وإنما هو سلوك دائم، وممارسة مطردة، كما نلاحظ أن الفاعل هو ضمير المتكلمين "نحنُ" كأنه يريد أن يشعرك بأن هذا اللوم يمثل موقفًا جماعيًا يمارسه كل أحد من الناس حين يخطئه الصواب، أو يحالفه عدم التوفيق في أمرٍ من الأمور المهمة في حياته.

ولاحظ دلالة تقديم الجار والمجرور، والمضاف إليه (على تبلدها) على المفعول (قلوبًا)، لابد أن في هذا التقديم إشارة إلى القلوب في حدِّ ذاتها ليست مناط اللوم، وإنما اللوم منصب على عدم تهيؤها لاستقبال حادثات الزمان.

ولكن أيحق لنا أن نلوم القلوب على غفلتها، وعدم انتباهها لما يدور حولها، أو لما يحاك لها من شرور وآثام؟

والجواب لا، فلقد كان من الممكن لومها لو أنها تخلد إلى الراحة، أو تركن إلى الهدوء والدعة فتسترد بذلك بعض عافيتها وقدرتها على التنبه واليقظة، ولكنها مجهدة متعبة لا تهدأ ولا تستريح، فالضغوط عليها كثيرة، وقلب شاعرنا بصفة خاصة يعاني من ثلاثة أنواع من الضغوط، أولها الضغط السياسي، أو انشغاله بالهمِّ العام الذي أحدثه تدهور الحياة السياسية في حلب، واستيلاء الروم عليها، ووصول طائفة من الصغار أصحاب المطامع والمصالح الخاصة إلى سدة الحكم فيها، وهم في سبيل تحقيق مصالحهم ومآربهم يقتِّل بعضهم بعضًا،

ويستعين بعضهم بالبيزنطيين أو العبيديين على بعض، وثانيها الضغط الاقتصادي الذي يتمثل في فقره، وفاقته، وحاجته وعوزه، فلقد كان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين دينارًا، قَدَّرَ منها لمن يخدمه النصف، وأبقى النصف الآخر لمؤونته[١]، وقد أدى ذلك إلى أن كان أكله العدس إذا أكل مطبوخًا، وحلاوته التين، ولباسه خشن الثياب من القطن، وفرشه من لبّاد في الشتاء، وحصيره من البرديّ في الصيف، وترك ما سوى ذلك[٢]، وإلى أن كان الطلبة إذا قصدوه أنفقوا على أنفسهم من موجودهم، ولم يكن له من السعة ما يَبَرُّهم به، وأهل اليسار من أهل المعرة يعرفونه بالبخل فكان - رحمه الله - يتأوه من ذلك، ويعتذر إلى قاصديه[٣] ومن شعره الذي عبّر فيه عن ضيق ذات يده قوله:

كأني حيث يَنْشَا الدَّجنُ تحتي   فها أنا لا أُطَلُّ ولا أجاد

وثالث هذه الضغوط التي يئن منها قلب أبي العلاء يتمثل في الضغط النفسي الناتج عن الغبن، وعدم التقدير اللذين قوبل بهما من معاصريه على الرغم من أنه كان نسيج وحده في حدة الذكاء، واتقاد القريحة، على ما تشير إلى ذلك الروايات المتكاثرة[٤]، كما كان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمرًا باهرًا[٥] حتى لقد قال أبو زكريا التبريزي "وما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها

---

(١) إنباه الرواة للقفطي، انظر تعريف القدماء ص٣١.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه ص٣٧.

(٤) راجع ذلك في الروايات التي أوردها ابن العديم في الإنصاف والتحري بتعريف القدماء ص٥٥١ وما بعدها.

(٥) الوافي بالوفيات للصفدي، انظر تعريف القدماء ص٢٦٥.

المعري[1]. وقد عرف القدماء قيمة شعره ونثره قال ابن الصابي "وله شعر كثير، وفيه أدب غزير"[2]، وقال سبط ابن الجوزي "وله النثر البديع"[3].

وهذه الضغوط وأشباهها كفيلة بأن تدفع الواقع تحتها إلى اليأس القاتل، لأنها تضع على المواهب والملكات حجابًا كثيفًا يحول بينها وبين الهواء النقي الصالح لتنفسها وتفتحها.

ويشير الشاعر في البيت السابع إلى أن القلوب الإنسانية مثلها كمثل النار تحتاج دائمًا إلى الغذاء الذي يجعلها متوهجة ومتقدة وذاكية، أرأيت إلى التي النار لا يشك أحدٌ في تلهبها، وقدرتها على الإحراق، إنك لو غفلت عنها ساعة من نهار فلم تُشَيِّعْها بالوقود فإنك سرعان ما تجدها قد خمدت جذوتها، وانطفأ لهيبها، وكذلك القلوب إذا لم تُرَفِّه، ولم يُخَفِّفْ عنها تبلدت[4] فانطفأ حماسها، وذهبت حميتها.

وهذا الذي قاله أبو العلاء في هذا البيت السابع يُعَدُّ من باب الكلام الجامع عند أصحاب البديع وهو أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة، أو وعظ، أو غير ذلك من الحقائق التي تجرى مجرى الأمثال، ويتمثل الناظم بحكمها أو وعظها، أو بحالة تقتضي إجراء المثل[5].

ونريد أن نقف وقفة عند الفاء في قوله "فظن" في أول البيت الثامن، لقد أشار الخوارزمي إلى أنها (تتعلق بـ"لعلك أن تشن")[6] في أول البيت الرابع، كأنه يريد

---

(١) الإنصاف والتحري لابن العديم، انظر تعريف القدماء ص٥٦٩.

(٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، انظر تعريف القدماء ص١٤٥.

(٣) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، راجع تعريف القدماء ص١٥٥.

(٤) شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٨.

(٥) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ١/ ٢٥١.

(٦) شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٩.

أن يبين أن أبا العلاء يرجع نجاح الإنسان في جلب الخير لنفسه، وفي دفع الشر عنها إلى عاملين اثنين:

الأول: أن يشكَّ في كل من حوله، وأن يتوجس ويرتـاب حتـى في أخلـص خلصائه، وأقرب المقربين إليه من إخوانه.

والآخر: أن يكون كاتمًا لسره، فلا يبوح لأيِّ إنسان مهما كَبُـرَ وسمـا بـأي سرٍّ من الأسرار مهما ضؤل وحقر.

ولا شك أن هذه الرؤية العلائية لها جانبان أحدهما إيجابي، والآخر سـلبي، فأما الإيجابي فيتمثل فيما تدعو إليه من الحيطة والحذر، وأما السلبي فيتمثل فيما تشي به من الميل إلى التشاؤم، والإيغال في سوء الظن بالآخرين إلى الحد الـذي يصل بالإنسان إلى القناعة التي مؤداها أن ليس هناك أخ، أو صديق صدوق يعين على الخير، أو من الممكن أن يؤتمن على الأسرار.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن أبا العلاء مولع بتقـديم مـا حقـه التـأخير في هـذا النص، وفي غيره من نصوص سقط الزند[1]، فلقد سبق أن قدم الجـار والمجـرور والمضاف إليه على المفعول في البيت السادس، ثم ها هو ذا في هذا البيت الثامن يقدم الجار والمجرور والمضاف إليه (بسائر الإخوان) على معمول "ظنٌّ" في الشطرة الأولى، ويقدم الجار والمجرور (على سرٍّ) على المفعول في الشطرة الثانية.

وهذه الرؤية التي قدمها أبو العلاء في البيت الذي معنا ليست مستمدة مـن قراءاته الفلسفية، وإنما هي مستمدة مـن تجاربـه الحياتيـة، وخبراتـه الطويلـة في التعامل مع بني البشر على ما يقول هو من قصيدة أخرى:

---

(١) راجع ما لاحظه د. زهير غازي زاهد من ولوع أبي العلاء بتقديم المتعلقات في: "لغة الشعر عنـد العرب دراسة لغوية فنية في سقط الزند" ص٥٢.

جرّبتُ دهري وأهليه فما تركتْ   لي التجاربُ في ودِّ امرئٍ غرضا[1]

وكما يشير إلى ذلك البيت التاسع الذي وظف فيه ما تناهي إلى سمعه من أساطير العرب مرة ثانية، وهذه الأسطورة تتعلق بالجوزاء التي علّق الخوارزمي على ورودها في هذا السياق بقوله "خص الجوزاء من بين سائر البروج لأنه بيت عطارد، وعطارد هو الذي ينسب إليه السلم"[2].

ويزيد ابن السيد البطليوسي الأمر توضيحًا فيقول "وإنما خصّ الجوزاء بالذكر لما قدمناه من أنهم يسمون الجوزاء التوأمين، ويجعلونها كأخوين تعانقا مودة، واضطجعا، رءوسهما إلى الشمال، وأرجلهما إلى الجنوب، ولذلك كانوا يقولون: إن الجوزاء تقطع السّماء على جنب"[3].

ومعنى هذا أن العرب قد تواضعوا من قديم الأزل على أن الجوزاء رمزٌ دالٌ على الخيرية ببعديها الذي يتمثل أولهما في الدعوة إلى السلم، وحقن الدماء، واتقاء الصدام والشر باجتناب بواعثه ودواعيه، أما بعدها الآخر فيتمثل في إشاعة الحب والألفة، وقيم التوادّ والتعاطف والمؤاخاة بين الناس، وربما ظنّ ظان أن الجوزاء تظهر في كبد السماء للناس بمقتضى هذه المواضعة لا تخشى بأس أحد، ولا تتوقى سوءًا من أحد، إلا أن أبا العلاء يرى أن سبب ظهورها للرائين هو علوها وارتفاعها، وبعدها عن مخالطة بني آدم ومعاملتهم، وقد أكسبها كل ذلك غفلة عن المعرفة الحقيقية بدخائل نفوسهم، مما جعلها تطل عليهم من برجها العاجي وهي آمنة مطمئنة.

والبيت مبني على الشرط، وأداة الشرط "لو"، وهي أداة غير جازمة تدل على ثلاثة أمور:-

---

(١) شروح سقط الزند ٢/ ٦٥٦.

(٢) شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٩.

(٣) شروح سقط الزند ٢/ ٥٦٠.

أولها: عقد السببية والمسببية بين الجملتين بعدها أي الربط بين مضمون الجملتين بحيث يكون مضمون الأولى سببًا في حصول مضمون الثانية[1].

وثانيهما: تقييد الشرط بالزمن الماضي.

وثالثهما: الامتناع، ونعني بالامتناع ما شاع على ألسنة المعربين، وأصحاب النحو التعليمي من أنها تفيد امتناع الشرط، وامتناع الجواب جميعًا.

ولعلنا لا نغلو حين نزعم أن أبا العلاء - وهو من هو تضلعًا في اللغة - قد آثر لَوْ دون غيرها من أدوات الشرط، وعمد إليها عمدًا ليضعها في هذا السياق لما يعلم من دلالتها على هذه الأمور الثلاثة التي يتطلبها تقوية لفكرته، فـ لَوْ في هذا البيت قد أفادت امتناع الشرط بمعنى أنها نفت علم الجوزاء بأحوال الأناسي. ثم أدى امتناع هذا الشرط إلى امتناع الجواب وهذا بدوره يعني أنها قامت بالربط بين مضمون الجملتين على أساس تعليلي بمعنى أن عدم علمها بأحوال الناس كان سبب ظهورها وبروزها وعدم احتجابها من قديم الأزل.

واللافت للنظر أن في الشطرة الأولى من البيت ما يشي بمقارنة عقدها أبو العلاء بينه وبين الجوزاء حين أضاف ياء المتكلم التي يعني بها نفسه إلى لفظة خُبْرٌ في قوله ولو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت.

ولكأن أبا العلاء يشير إلى أنه يشبه الجوزاء في أمرين:

أولهما العلو والرفعة، والآخر حب الخير، وإيثار الموادعة والسكون، والرغبة في مسالمة الناس ومهادنتهم، ثم هو بعد ذلك يمتاز عنها بأمر ليس لها قدرة عليه، ولا دراية به، وهو المعرفة الحقيقية بنزوع بني البشر إلى الشر والمكر، والحقد والكيد، تلك المعرفة الناجمة عن شدة مخالطته لهم، وكثرة ما أصابه منهم من أذى وسوء.

■ ■ ■

---

(1) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب ١/ ٢٦٤.

-٤-

قراءة في ديوان قصائد للإسلام والقدس

للدكتور سعد دعبيس

١- المبدع:

الدكتور سعد دعبيس شاعر مصري معاصر، تخرج في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ثم واصل دراساته العليا بها حتى حصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث، وله عدد من الدراسات الأكاديمية في الأدب العربي منها: "الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر" و"التيار التراثي في الشعر العربي الحديث" و"حوار مع الشعر الحر" وله عدد من الدواوين الشعرية التي يدور معظمها حول الإنسان وهمومه وقضاياه منها: "أغاني إنسان" و"اعترافات إنسان" و"البحث عن إنسان" و"قصائد للإسلام والقدس" و"حوار مع الأيام" وهذا الديوان الأخير حصل به الشاعر على جائزة الشاعر السعودي محمد حسن فقي التي تمنحها مؤسسة يماني الثقافية بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٩٩/ ٢٠٠٠.

وكان الدكتور سعد دعبيس رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية التربية جامعة عين شمس، وظل بعد إحالته إلى المعاش في وظيفة أستاذ غير متفرغ بالكلية ذاتها إلى أن أقعده مرض الوفاة.

ولقد مارس الدكتور سعد دعبيس الإبداع الشعري منذ يفاعته الباكرة، وها هو ذا يتحدث في مقدمة ديوانه (حوار مع الأيام) فيقول في ذلك: "وقد ظل هذا الحوار مع الشعر منذ توهجت روحي بإشراقات الوجود، وعانقت روعة الأحلام في نضارة الصبا، وريعان الشباب، وسيظل الشعر دائمًا زاد المعاد، ورفيق الحب والصفاء في رحلة الحياة، ووطني الذي ألوذ به في عواصف الغربة

والنوى، ووجودي الذي أنطلق منه حين تحاصرني متاهات العبث والسأم، والضياع والعدم"[1].

ويروي الدكتور سعد دعبيس أن أول نص شعري نشر له كان بعنوان "في القاع .. يارب"، وقد نشرته مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٤٨، وكان الشاعر يومئذ لا يزال طالبًا بكلية دار العلوم، وهناك نص آخر نُشِرَ بعد "في القاع .. يارب" بأربع سنين بمجلة الثقافة التي كان يصدرها عن طريق لجنة التأليف والترجمة والنشر الأستاذ العلامة أحمد أمين، وقد نشر بعددها رقم ٧٢٨ الصادر في يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٢هـ الموافق ٨ديسمبر ١٩٥٢م، وذلك بعد أن تخرج الشاعر من الجامعة.

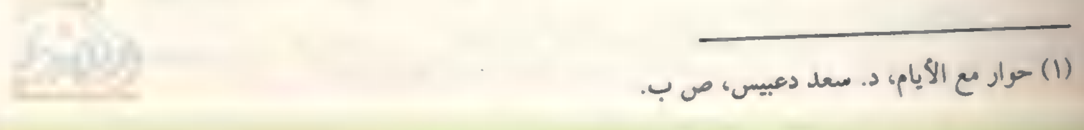
وهذا النص عنوانه "سطوح وأعماق"، وقد روى فيه الشاعر قصة الأزمة التي تعرضت لها نفسه، وعانى منها قلبه وهو يخطو أولى خطواته العملية بعد التخرج، وهي أزمة موت أبيه حيث كان الشاعر أكبر أخوته، ومن ثمّ تضاعف إحساسه بالفجيعة لأنه صار على صغر سنه، ونضارة عوده، وقلة خبرته بالحياة عائل الأسرة بعد رحيل عائلها، والمسئول عنها بعد أن كان متفرغًا لفنه وأدبه، وعالمه، وهذا النص يصور هذه المعاني جميعها ولذلك آثرت أن أسجل بعض أبياته ها هنا ليقف القارئ على شاعرية الدكتور دعبيس في أولى مراحلها.

يقول الشاعر:

أختي الصغيرة يا أبي تبكي تريدك أن تعود

عد يا أبي عد يا أبي حطّم عن الروح القيود

عد للصغيرة قل لها شيئًا عن القدر العنيد



(١) حوار مع الأيام، د. سعد دعبيس، ص ب.

فلكم أحاول أن أقول فأنثني عمّا أريد

* * *

أأقول يا أختاه مات أبوك أم ماذا أقول

أأقول واراه التراب وأغمض الجفن الكليل

أأقول راح مع القوافل!! راح في سفر طويل

في رحلة مسحورة الآفاق يطويها الذهول

نشوانة الصحراء شاردة الروابي والسهول

لا يرتجى منها الإياب، ولا يبين بها سبيل

كل القوافل قد تعود ولا يطول بها الرحيل

إلا أباك فلن يعود لسطوة القيد الثقيل

وفي مقطع آخر من هذا النص يقول الشاعر موجهًا الحديث إلى أبيه:

أبتاه عد، بل لا تعد، أتعود تحمل همّنا

لا . قد كفاك من الأسى ما قد لقيت لأجلنا

يا كم تحمّلتَ العذاب وما شكوت أمامنا

ولكم ضحكت من الحياة، وكم سخرت من الدنا

ومعنى هذا أن الدكتور سعد دعبيس ظل يمارس الإبداع الشعري خمسين عامًا متواصلة على الأقل، ولعل هذا ما دفعه للرد على الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور عندما أعلن أن زمن الشعر قد مضى، وأننا نعيش الآن عصر الرواية يقول الدكتور سعد: إن زمن الشعر لن يمضي أبدًا في أي عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات، وهل يمكن لغربتنا في هذه العالم أن

تنتهي؟، وهل يمكن لأعاصير القلق الثائرة في أعماقنا أن تتوقف؟، وهل انتهت صراعات العقل الباطن في لا شعورنا؟، أما يمتلكنا الحنين في كل لحظة إلى الفرار من آلية الحياة الصناعية ورتابتها إلى عالم الدهشة والغرابة؛ عالم الأحلام والرؤى؟. إن زمن الشعر لن يمضي أبدًا. بل إن حاجتنا إليه الآن في عصر الملاحم الصناعية والخوارق العلمية لأشد مما كانت في العهود السابقة.

ولا يحسبن القارئ العزيز أنني أؤيد الدكتور سعد دعبيس في رده على الدكتور جابر عصفور، ذلك لأنني أرى أن الدكتور سعد قد فهم كلام الناقد الكبير على غير وجهه فالدكتور جابر - من وجهة نظري - يريد أن يشير إلى أن الرواية في عصرنا قد أصبحت فن العربية الأول، وأن الشعر لم يعد فنها الأول، وإنما أصبح فنها الثاني، وهذا صحيح إلى حدٍّ بعيد، ويؤيده الواقع من حيث عدد الروايات وأعداد الروائيين التي تتكاثر يومًا بعد يوم، ومن حيث إقبال ناشئة المتأدبين، والقراء والمثقفين على اختلاف منازعهم ومشاربهم على ما يصدر من نصوص روائية، ولا أظن أن ديوانًا شعريًا يحقق من المبيعات في عصرنا ما تحققه رواية من روايات علاء الأسواني، أو يوسف زيدان، على سبيل المثال من أرقام في عالم التوزيع والنشر.

٢- الديوان/ قصائد للإسلام والقدس(*)

تساءل - منذ فترة- أستاذنا الدكتور الطاهر مكي عما أصاب شعراءنا - هذه الأيام - ببلادة الحس، وجمود المشاعر، وتحجر العواطف[1] في وقت تتكالب فيه على الأمة العربية والإسلامية ذئاب البشر، وتتداعى عليها فيه الأمم كما

(*) نشرَ هذا المقال من ذي قبل بمجلة الأزهر، السنة الحادية والسبعون، الجزء السابع، رجب ١٤١٩هـ/ نوفمبر ١٩٩٨م، الصفحات من ١١٢٤ إلى ١١٢٨.

(١) د .الطاهر مكى: شمس الشعر الغاربة، مقال بمجلة الهلال عدد ديسمبر ٩٦ . ص ١٠٦ .

تتداعى الأكلة على قصعتها، وتأتيها المصائب والنوازل مصبحة وممسية، وتتغطرس إسرائيل، وتمارس أبشع صنوف الاضطهاد والتشريد والتعذيب والطرد تجاه العرب والمسلمين في القدس الشريف والأراضي المحتلة، ويسقط عشرات القتلى ومئات الجرحى من الفلسطينيين بين الحين والحين دفاعاً عن حقوقهم المشروعة ووطنهم السليب.

ولعل هذا الديوان قصائد للإسلام والقدس للشاعر العالم الدكتور سعد دعبيس يمثل صرخة تشق جدار الصمت لتعلن – أولا – أن هناك نفرًا من شعرائنا لا يزالون يعيشون هموم مجتمعاتهم، ويعبرون عن آمالها وآلامها، ويتفاعلون مع مايحدق بها من أحداث جسام، ولتعلن – ثانياً – أن هذا الشاعر واحد من هؤلاء .

والدكتور سعد دعبيس شاعر ينطلق في إبداعه الفني من موقف محدد، وأيديولوجية خاصة، ذلك أنه أحد الشعراء الذين أسهموا إسهاماً فعالاً في تنشيط حركة الأدب الإسلامي، وهو في مفهومه ذلك الأدب الذي يتبنى قيم الإسلام السامية، ومبادئه العليا، وغاياته الشريفة، ويستمد موضوعاته من تلك القيم والمبادئ والغايات مضافاً إليها ما يحفل به التاريخ الإسلامي – ممثلاً في سيرة الرسول ﷺ، وسير خلفائه الراشدين، وصحابته الأكرمين، ثم سير علماء الأمة ومفكريها وفلاسفتها مبدعيها – من صفحات ناصعة، وصور رائعة لحميد الفعال، وكريم الخصال .

والأديب المسلم عند الدكتور سعد دعبيس هو ذلك الأديب الذي يتبنى قضايا مجتمعه الإسلامي[1]، وينفعل بها، ويعبر عنها في إبداعه داعياً المجتمعات

---

(١) د . سعد دعبيس : قصائد للإسلام والقدس، المقدمة ص ٨ ، الطبعة الأولى القاهرة ٨٩ . وجميع الإحالات بعد ذلك على هذا الديوان.

الإسلامية إلى التخلص مما حاق بها من أسباب الضعف والتخلف، وحاثاً إياها على استشراف المستقبل، والتأهب له بالاتحاد ونبذ عوامل التفرق والتشرذم، والأخذ بأسباب العلم واستيعاب منجزات العصر الحديث وتقنياته في جميع المجالات، ثم العمل بعد ذلك على أن تكون لهم إضافاتهم إلى صرح الحضارة، ومشاركتهم في النهضة العالمية الحديثة .

وهذا الديوان الذي نعرض له بالتحليل والنقد ينحو هذا المنحى، وهو كما يبدو من عنوانه يتبنى قضيتين أساسيتين :

أما القضية الأولى : فهي الدعوة إلى الإسلام بما يحمل من قيم التواد والتعاطف والتراحم، وبما يدعو الناس إليه من الحرية والمساواة والعدل، فهو دين يسوى بين الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم، أجناسهم، لا فرق فيه بين صغير وكبير، ولا بين أبيض وأسود، إلا بما يقدمه للناس من خير، وبما يحمل في قلبه من رفق وفى نفسه من إباء للضيم، وترفع عن الدنايا، وفى هذا يقول الشاعر من قصيدته إنسانية الإسلام على لسان الإسلام نفسه:

صلتي بالكون.. إنسانية	تلتقى أجناسها في المعبد
قيم الأفراد .. في أعماقهم	ليس بالأبيض .. أو بالأسود
إنما أجناسنا أسطورة	تنمحى أوهامها في المسجد
وبريق اللون يخبو عندما	يسجد الناس لرب أوحد [1]

وفى سبيل الدعوة إلى الإسلام يمضى الشاعر في قصيدته يستعرض على لسان الإسلام نفسه أمجاد هذا الدين، وأثره على بني الإنسان في المشارق والمغارب حيث صهرهم يوماً في بوتقة واحدة وجمعهم على كلمة واحدة،

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .

وأذاقهم نعيم الوحدة العامة، والأخوة التامة، والمساواة والعدل المطلق، مما أتاح لهم أن ينسوا ما كان بينهم في سالف الزمان من إحن وثارات :

قد سَكَبَتْ الكونَ يوماً وحدة — من أزاهيرِ ربيعٍ مورقِ
غَرَّدَ ابنُ الغربِ فيها لَحْنَهُ — مثلما هام بها ابنُ المَشْرِقِ
نسي الرومان والفرس بها — إحَنًا كانتْ كَلَيْلٍ مُطْبِقِ
وغدوا من بعد حربٍ إخوةً — وزهى الكونُ بعدلٍ مُطْلَقِ[1]

وفي ظل هذا العدل المطلق والوحدة الجامعة نشأت حضارة هذا الدين، تلك الحضارة الإسلامية التي أعلت قيمة الإنسان، وغالت بكرامته، وصانت آدميته، وحفظت عليه حياته - حتى وهو أسير - فلم تفكر يوماً في الاعتداء عليها، أو إزهاقها، أو اختراع أدوات ومواد تنسفها وتبيدها:

لم تُبِحْ قَتْلَ أسيرٍ أعزلٍ — بجرائيم وبداءٍ مُعْدِمِ
لم تفجر ذرة طائشة — تُجْعَلُ الكونَ بقايا مأتمِ[2]

والشاعر في هذا يعرض بالحضارة المادية الغربية الحديثة التي تقوم على البطش بالضعفاء، والفتك بالأعداء دونما، تفرقة بين بريء ومجرم، وظالم ومظلوم، ومحارب ومسالم.

ويدرك الشاعر أن في الإسلام علاجاً للإنسانية جمعاء من آلامها وهمومها وشقائها وتعاستها بما أنجزت من تقدم مادي باعد بينها وبين عالم الروح، وبما تردت فيه من الانحلال والتفكك والتمزق لذا نراه ينادى الإنسان - أياً كان موقعه على خريطة المعمورة - على لسان الإسلام نفسه فيقول:

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .

(٢) الديوان ص ١٠٦ .

يا أخي في الشرق والغرب أفق		آن أن تسمع ألحان المنى
آن أن يغمر عينيك السنا		فأصغ للفجر يسرى معلنا
وارقبوا الأفق فإني قادم		واسمعوا صوتى .. إني هاهنا
إنني الإسلام .. حلم العالم		أنا طب الكون.. آمال الدنا[1]

ويرى الشاعر النبي ﷺ شمس اخضرار تبدد ظلام اليأس والقنوط والحيرة، وتزرع الأمل والخير والسلام في دنيا الوجود:

أراك على الأفق شمس اخضرار		ترفرف فوق القرى والدروب
تذيب جبال الأسى والهموم		حدائق ضوء بفسح خصيب[2]

أما القضية الثانية : التي تبناها هذا الديوان فهي "قضية القدس" التي كتب فيها عدداً من القصائد من مثل "خلفيتان لصورة القدس" و"وطن المسلم"، و"إنهم يسرقون القدس من معجم البلدان" وفى هذه الأخيرة تمتلئ نفس الشاعر بالحيرة الممزوجة بالحسرة والألم حتى إنه ليتساءل قائلاً :

أترى زيفوا المعاجم حتى		نسى القدس مُعْجَمُ البلدانِ
أين ألقى في معجم اليوم رسمًا		لبلاد الإسراء والإيمان
وطن .. مسجد .. أذان.. صلاة		أين ألقى بيان تلك المعانى[3]

ويشير الشاعر إلى ما يرتكبه المحتل فيها من اعتداء على الحرمات، وقتل للأبرياء ، وإشاعة للخوف والذعر:

جنود صهيون قد ساقو قوافلنا		أسرى لأمرهم نعنو ونأتمر

---

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٨٦ .

(٣) الديوان ص ٢٤ .

وهتكوا عرض من شاءوا وما رحموا وعربدوا مثلما شاءوا وما ازدجروا

ومزقوا جثث الأطفال في نهم وهللوا لدم الأطفال وافتخروا[1]

وينظر الشاعر إلى هذه الأفعال التي يرتكبها المحتل في الأراضي الفلسطينية فيراها لا تصدر عن إنسان له قلب وروح ، وعروق تجرى فيها دماء الحياة فيتساءل : من أي جنس يا ترى من الأجناس هؤلاء العابثون بالكرامة الإنسانية، المحطمون لأروع حضارة عرفتها البشرية على مر التاريخ ؟ أهم من الحيوانات العجماوات ، ومن أي فصائلها هم إن كانوا منها ؟، أمن الوحوش أم من البقر؟

وحوش غاب همو .. لا بل زبانيةٌ الوحشُ يَأنفُ مما يفعلُ الغجر

أهم بهائم .. قد أرخوا أزمتها حَميرُ وحشٍ همو .. أم يا تُرَى بَقَرٌ[2]

وسرعان ما يتذكر ما جُبِلَت عليه الحيوانات من الرحمة فيدرك أنه :

لاشيء من عالم الغابات يشبههم فللوحوشِ قلوبٌ .. مثلما البشر[3]

ولا يدعنا الشاعر نتوهم أن قلوبهم قد قدت من حجارة صماء لا تشعر ولا تحس ولا تلين حيث يقول:

حتى الصخور إذا قيسوا بها رفضت فالصخر من قلبه الأمواهُ تنفجر[4]

وهو في هذا البيت متأثر على المستويين التعبيري والتصويري بالآية القرآنية

---

(١) الديوان ص ٤٠ .

(٢) الديوان ص ٤١ .

(٣) الديوان ص ٤١ .

(٤) الديوان ص ٤١ .

التي وصف بها الحق جل جلاله، قسوة قلوب بني إسرائيل، وهي قوله تعالى ناعيًا عليهم تحجر قلوبهم ومشاعرهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ويقف الشاعر مشدوهًا أمام الطفل الفلسطيني الذي يقاوم الاحتلال والعنف الإسرائيلي بالحجارة، ويهدي أروع قصائده "العيد .. والمآذن الثائرة" إلى الأم الفلسطينية التي قدمت للعالم أطفال ثورة الحجارة.

ويرى أن الحجر في يد الطفل الفلسطيني قد تكلم فأحسن البيان ... اسمعه وهو يقول على لسان طفل يخاطب أمه، ومن حوله من أهلٍ وأحباب:

أرأيت أشعار الحجارة كم لها سحر مبين

فلتسقطوا فن البلاغة في الحواشي والمتون

ولتدرسوا الأحجار فهي بلاغة الخبر اليقين

* * *

فن الحجارة مولد لبلاغة لا تستكين

إن البلاغة حيثما الأحجار تأبى أن تهون

ولقد تعيد حجارة رشدًا لمن زعم الجنون

ولقد تبين حجارة صماء مالا يستبين

* * *

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٤.

إن البلاغـة موقـف فـاختر لنفسـك أن تكـون

واربأ بنفسك عـن بلاغـة أن تكـون .. ولا تكـون

وسـل الحجـارة حـين تحملـها قلـوب المـؤمنين

سـلها فـإن بيانهـا يشـفي قلـوب الحـائرين[1]

ولقـد خلـع الشـاعر في هـذه القصيدة على الحجـارة كـل معـاني الحيـاة الإنسانية، فهي تقول شعرًا له سحر مبين، وتعيد الرشد لمن زعم الجنون، وتُسأَلُ عن نفسها فتجيب إجابة تشفي قلوب الحائرين.

وفي تصوري أن الشاعر يعرِّض في هذا النص بالخطب التي دأب السياسيون عربًا، وغير عرب على إلقائها داعين طرفي النزاع إلى ضبط الـنفس كلمـا لجـأت إسرائيل إلى العنف والبطش.

كما زاوج فيها بـين الأسـاليب الإنشـائية والخبريـة للتعبير عـن انفعالاتـه وأحاسيسه بهـذه الانتفاضـة، وهـؤلاء الأطفـال الـذين اسـتطاعوا - بالحجـارة وحدها - أن يقضوا مضاجع المحتلين، وأن يلفتوا أنظار العالم كلـه إلى مـا أحـاط بهم من الظلم، وما لفَّ حاضرهم ومستقبلهم من الضياع.

وعلى هذا النحو من التعبير والتصوير يمضي الشاعر في بقية قصائد ديوانـه القيم الذي أثرى به - ولا شك - دنيا الشعر العربي المعاصر.

■ ■ ■

(١) الديوان ص ٣٧ .

بكــاء الشــادوف

اقصوصة لمحمد عبد الحليم عبد الله

يستوقف نظر من تسوقه قدماه إلى تلك البقعة الهادئة الواقعة على النيل فى القاهرة قطعة أرض من بقايا الحقول تنظر إليها القصور فى ازدراء وكبر .. لكن الخصب الكامن فى معدنها بدا كأنه يتلقى عنجهية المبانى بتسامح وعفو وإغضاء، كنفس العمل الذى يأتيه سكان هذه المبانى، ونفس العمل الذى يأتيه الكادحون فى هذه الأرض.

وهناك كوخ صغير يجثم بين قصرين.

جدرانه من صفيح وحطب، وطين وقصب ... وجثم كأنه رصد وكله فرعون بكنز ثمين.

يتصاعد الدخان من بابه وسقفه وكواه والتفاريح التى تملأ جدرانه، فلو رأيته من بعيد لظننت أنه يحترق.

لكنك حين تقترب منه يأخذ سمعك أول ما يأخذ غناء ناشز لا انسجام فيه يتردد بلهجة صعيدية، ويراسله على البعد فى وسط الحقل بكاء لشادوف ينزف الماء من بئر غير غزيرة، حيث يسقى السبانخ والخبازى والنعناع والجرجير، وبعض شجرات من الورد نثرت فى فوضى على حوافى الحقل لأن غرسها لم يكن عملا مقصوداً لذاته.

وإن كنت ممن لايقيسون الأمور بالأرقام كما يفعل عداد الماء أو عداد الكهربة؛ حكمت بأن فى هذا الكوخ سعادة قد لا تكون فيما هو منزو بينه من قصور.

وكثيراً ما يأخذ بصرك أول ما يرخى الليل سدوله غلام فى السادسة من

عمره، أسود، صعيدى، محلوق الرأس بغير انتظام، جميل العينين، أخضر الأسنان من كثرة أكل الخضر. واسع الجلباب، مفتوح الصدر.

ترى هذا الغلام وقد جعل من إحدى الصفائح الفارغة دفا يوقع عليه غناء يطرب له جدا .. وقد تطرب له أنت كذلك على شرط أن تسمعه بأذنيه.

قلما يمسك الشادوف عن البكاء ..

قلما يكف الدخان عن التصاعد ..

وقلما يتخلف الغلام عن الغناء ..

مشاهد متتابعة متلاحقة كأن كلا منها كان سببا فى ظهور الآخر!!

***

كان الليلة جالسا على باب الكوخ واجماً لا يغنى، والدف الصفيح ملقى على بعد منه كأنه عود خال من الأوتار، وكان وجهه الذى بدت ملامحه تحت ضوء شاحب من مصباح صغير متجها إلى نافذة القصر، فقرأت عليه حزناً، وأظن أنه لولا وقوف الظلام بينى وبينه لرأيت فى عينيه البريئتين دموعاً، وأيد ماظننت أننى سمعته يهيب بأمه الجالسة على العتبة من الداخل قائلاً لها وهو يشير إلى نافذة مضيئة: أما يزال "عادل" مريضاً بالحمى؟.. ترى كيف حاله الآن؟. إنني لم أره من زمن طويل .. طويل.

كل يوم أجهز له الورد ولكنه لاينزل.. ليتنى أستطيع الدخول إليه.. منعنى الخدم خمس مرات، فرميت الورد فى النيل، لأننى قطفته من أجله.

فقالت الأم فى حدة شديدة: إياك أن تحاول هذا مرة أخرى .. مغفل .. أمتى ح تتفهم، إن أمه غاضبة، وتزعم أن نزوله إليك هو الذى سبب له الأمراض، ألم تسمعها وهى تحذره من أن يمشى فى الحقل، أو يقترب من الكوخ؟! فقال الغلام:

سمعتها يا أمى. وكانت تفتح النافذة المطلة علينا وتنحنى إلى الأمام وهى تشير بيديهاوتنادى عليه:"دولا .. دولا .. ألم أنهك عن النزول؟!"

فيفر عادل من أمامى!!

ثم يسكت الغلام برهة، ويشرد بصره فى الفضاء قبل أن يمصمص بشفتيه، ويهز رأسه فى صمت، ثم يسأل أمه:

- لكن .. لم يمرض عادل يا أم وهو يأكل لحما ويعطينى شيكولاته؟! إن الدكتور فى المستشفى قالى لى يوم ذهبت مريضاً "غذ نفسك يا شاطر". لم هو مريض يا أم ؟!

- لم يمرض من الأكل.

- هل مرض من الجوع؟ .. هل حرمه أبوه من الأكل لأنه (لا يسمع الكلام)؟

- ولا هذا يا مرسى .. أنه مريض بالحمى.

- سيشفى بإذن الله، فقط عليه أن يغذي نفسه.

- بالعكس يقولون: إن الطبيب منعه من الأكل وهو يعيش على السوائل وحدها.

فهز الغلام رأسه فى حيرة مرة أخرى، لأنه لم يستطع أن يوفق بين مشكلتين بدا التناقض واسعا بينهما: ناس يمرضون فيشفون إن شبعوا، وناس يمرضون فيشفون إن جاعوا.

وفاحت روائح العدس فعطرت نواحي الكوخ، وجلس مرسى إلى العشاء بين أبويه، وبات بعدها يغط في سبات عميق لأنه البصل كان أكثر من كل مرة.

***

ولم تشأ أسرة عادل أن تؤخر عيد ميلاده وإن كان لا يزال فى دور النقاهة، لأن فى تأخير أعياد الميلاد شؤماً على المواليد!! ورأى، مرسى وهو جالس عند باب الكوخ معطل الدف أن القصر الليلة فى زينة وأن أناساً كثيرين يدخلون، وسأل فعلم حقيقة الموضوع، وتقبل المريض التهانى والهدايا وهو فى سريره، واختصر الحفل مراعاة للظروف، وتجمع المدعون يسمرون، وتركوه وحده فى الفراش.

وكانت هناك أقدام تتسلل على السلم الخلفي في طريقها إلى عادل، وحالف الحظ صاحبها فلم يشعر به أحد، ودخل مرسى على صديقه غرفة نومه وفى قلبه شوق، وفى يمينه حزمة كبيرة من الأزهار لم ينسقها سوى الحب، وكان المريض مسبل الجفنين كأنه نائم، فأقبل عليه صديقه كما يقبل الظامئ على المنهل، وأكب عليه فى قبلة أيقظته من أحلامه، وعجب عادل لأن البراءة لم تكن قد خضعت بعد لسلطان التقاليد، فابتسم له، ومسح على رأسه الأشعث المغبر، لكنه سرعان ما تذكر أمه وخيل إليه أنها تنادى من النافذة المطلة على الحقل وهو تشير بأحدى يديها :

"دولا .. دولا .. ألم أنهك عن النزول؟!"

فقال لصاحبه :

أنزل يا مرسى .. أنت سبب مرضى كما تقول أمى!!

فلم يسع الضيف إلا أن يحملق فيه بعينين مستغربتين فيهما آثار من الدموع وهو يشير إلى صدره بإصبعه متعجباً منكراً: أنا ؟ ... أنا؟..

وكأنما عز على الصديق الثاني أن يبكى زائره فهمس :"أنت زعلت .."

فمال مرسى عليه ليقبله مرة أخرى.

***

وتنقضي أيام يتم فيها شفاء عادل، وينزل إلى الدنيا ليملأها نورا، وتحقق الأم نذرا أنذرته لله، فتحرم على ابنها أن يحوم حول الكوخ القريب ولو مرة واحدة، وتظل عينا الصبى الثانى تبحثان فى سكون ولهفة عن الصبي الأول حتى إذا ماغلبهما اليأس اتجهتا نحو نافذته تطالعان النور .. ثم تنقضي أيام أخر...

وتنسق الأمور لأم عادل، لأن ابنها أصبح في أمان

إن مرسى لا يظهر له ظل فى المكان جمعيه، ولا يسمع له صوت، وكثيرا ما يهز الشوق إليه ابنها الصغير فيطل على النافذة علـه يـراه عند الكوخ .. كان مرسى يهتف باسمه، لكن صوته لم يصل إليه لأنه كان بعيداً.

كان راقداً فى مستشفى الحميات، فى الدرجة الثالثة، حيث تتقارب الأسرة فى ازدحام قذر، تشرف عليه نفوس لا تحب عملها.

كان الغلام إذا هتف باسم صديقه وهو فى وهج الحمى تنهدت إحدى الأمهات فى سرير مجاور لتسهر على ابنها الصغير كما يقضى نظام المستشفى ثم قالت :

- "يا عيني ... لازم أخوه!!"

لم يكن هناك غناء لأن مرسى غائب، لكن الدف الصفيح كان ملقى في إهمال على مقربة من الباب.

والشادوف كما هو لا يكف عن البكاء، والدخان كما هو كذلك لا يتخلف عن التصاعد .. أعنى أن ظاهرة واحدة من الظواهر الثلاث هى التي غابت!

وتدافعت الأيام فى طريقها والمريض فى المستشفى يزهد فى الطعام يوما بعد يوم حتى قنع بالماء ... ثم استغنى عنه آخر الأمر!

وارتفع صراخ فى الكوخ بعد ارتفاع الضحى حين نعى المستشفى إلى الأبوين ولدهما .. ثم غابا قليلاً عن الحقل ريثما قضوا له آخر حاجاته ثم عادوا.

وكان أول ما عملته أم مرسى أن أخذت الدف وجرت به نحو النهر وألقته فيه.

وأشرقت شمس اليوم التالى فتخلفت الظاهرتان الباقيتان .. لم يكن الشادوف فى ذلك اليوم يبكى لأن صاحبه كان يبكى بعينيه .. ولم يكن يتصاعد من الكوخ دخان.

وكان هناك صوت فى النافذة ينادى بين حين وحين:

"دولا .. دولا .." فيكمل الوالدان فى ضميرهما بقية الدعوة: "ألم أنهك عن النزول؟!".

ثم تكفكف المرأة دمعها بطرحتها، ويمسح الرجل دمعه بطرف كمه.

ثم أظلت الليلة التالية فلم يوقد فى الكوخ مصباح، بل لبس الظلام منذ مدخل الليل حتى نهايته .. أما القصر فقد كان مشرقاً بأضوائه، مزهورا بجمال بنائه .. فهل أحس بالزهو الذي يحسه الصنم حين يحرق تحت قدميه قربان؟!



القراءة

محمد عبد الحليم عبد الله روائى مصري، ولد عام ١٩١٣ بإحدى قرى محافظة البحيرة، تخرج في كلية دار العلوم، وله عدد من الروايات مثل معظمها على شاشة السينما من مثل: "لقيطة"، و"غصن الزيتون"، و"من أجل ولدى"، و"البيت الصامت"، وله عدد من المجموعات القصصية مثل: "ألوان من السعادة"، و"النافذة الغربية"، و"أشياء للذكرى"، و"جوليت فوق سطح القمر"، وقد لاحظ الأستاذ يوسف الشارونى أن نشأة المبدع الريفية قد تركت "بصماتها الواضحة على ما كتبه من أدب فيما بعد، لاسيما في أعماله المبكرة، سواء من حيث اختياره للأماكن التي تدور فيها أحداث قصصه، أو شخصياته التى خضعت تصرفاتها - على حد تعبيره - لمشاعر الريفى الحيى الخجول المتدين"[1].

وإذا كان الأستاذ الشارونى عند تحليله لمجموعته القصصية "حافة الجريمة" قد قال "تضم هذه المجموعة سبع عشرة قصة لو حذفنا منها قصة أو قصتين لما استنشقنا غير رائحة الريف"[2]. فإننا نستطيع أن نقول القول نفسه على موضوعات مجموعته القصصية " النافذة الغربية" التى أخذنا منها أقصوصة هذا الدرس.

والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله رجل مصرى من صميم الريف، قدّر له أن ينال حظا من التعليم والثقافة وفقا لبيئته التى نشأ فيها وترعرع بين أحضانها، ومن ثم فقد تبنى عرض مشكلاتها فى قصصه، حتى ليستطيع دارس

---

(١)يوسف الشارونى : الروائيون الثلاثة - طبعة هيئة الكتاب سنة ١٩٨٠م ص ٢١٩.

(٢)السابق نفسه ص ٢٦٧.

علم الاجتماع أن يقف على كثير من ملامح مجتمع ريف مصر قبل الثورة من خلال قراءاته لقصص محمد عبد الحليم عبد الله.

لقد كان الريف المصرى قبل الثورة ثورة يوليو ٥٢ يعانى من ويلات ظلمات ثلاث (الفقر والجهل والمرض)، وكان الفلاح المصرى يقضى ساعة نهاره فى شقاء وكدح، يفلح الأرض، ويتعهدها بعنايته حتى تؤتى أينع الثمار، ثم يذهب عائد تعبه وحرثه وزرعه إلى غيره، إلى الإقطاعي الذي يملك الأرض، وربما يملك الفلاح أيضاً.

لقد كان الفلاح قبل يوليو ٥٢ مظلوماً أبشع الظلم، لا ينال أجراً على عرقه، ولا يستطيع أن ينا حظاً - ولو ضيلا - من التعليم، وإذا مرض لم يجد من يعالجه، ويظل يتقلب ويتلوى في فناء داره إلى أن يحين حينه.

هذه هي البيئة التي نشأ فيها محمد عبد الحليم عبد الله، وهذا هو حالها من السوء، وأقصوصة "بكاء الشادوف" تحاول أن تظهر التناقض الواضح بين هاتين الطبقتين من طبقات المجتمع، طبقة الأغنياء الذى يتسلطون على الناس بما يملكون من الثروة والجاه، وطبقة الفقراء الذين كان يمثلهم الفلاح المصري أصدق تمثيل.

تحاول هذه الأقصوصة أن تركز على سلوك هؤلاء وأولئك، فالفقير الذى يمثله "مرسى" الطفل الصغير الذى ينتمى إلى الفلاحين إنسان عف، بسيط ، ودود، متسامح، وصديقه "عادل" الذى ينتمى إلى طبقة الأغنياء لا يستطيع إلا أن يتأثر بما يتحكم فى قصره من أعراف، ومن ثم فهو يصعر خده في أكثر من موقف، ويقابل مرسي عندما يذهب لزيارته وهو مريض بعجرفة وعنجهية.

وتشير الأقصوصة إلى أن مرسى الفقير البسيط الذى يسكن فى كوخ متواضع يشعر بالسعادة غامرة من أعماق نفسه لأن حياته بسيطة رتيبة هادئة،

ولأن الإحساس بالسعادة شئ كامن فى داخل النفس، يعمل الرضا على زيادة الشعور به، أما صاحبه (عادل) فعلى الرغم من غناه، ومن المعيشة الرغدة التى يحياها فإنه لا يشعر بالسعادة، لأنه يعيش تحت وطأة قيد ثقيل من الأعراف والبروتوكولات التى يلزم بها أصحاب القصور أنفسهم وذويهم.

ومن المظاهر التى تدل على ولوع الكاتب بإبراز المتناقضات التى فى المجتمع أيضًا، ما ألمح إليه الكاتب من أن (عادل) حينما مرض جاءه الطبيب إلى المنزل، وظل تحت عنايته الكاملة حتى عوفي من مرضه، على حين أن (مرسى) حينما مرض بالمرض نفسه أرسل إلى مستشفى، ثم جلس فى مقاعد الدرجة الثالثة، حيث الإهمال، وسوء المعاملة، لأن هذا القسم تشرف عليه أشخاص لا تحب عملها.

كأن محمد عبد الحليم عبد الله يريد أن يقول لقد صار المجتمع المصري مجتمعا مادياً صرفًا، فهؤلاء الذين يشرفون على هذا القسم من أقسام المستشفى فى الحقيقة لا يؤدون أعمالهم لأنهم لا عائد يعود عليهم من وراء تأدية هذه الأعمال، وكأنهم لا يقتنعون بما يأخذون من أموال الدولة – لاحظ زمن كتابة القصة – ويرون أن من واجبهم أن يبتزوا جيوب الناس.

في التحليل الفنى للقصة:-

الوصف : يتكئ الكاتب على الوصف فى بناء قصصه، وهو حين يصف إنساناً، أو جماداً يعنى بالأشياء الصغيرة جداً، ويستنطقها حتى لتبوح بأسرار صاحبها النفسية، وحتى لكأنك تستطيع إن كنت من المبدعين فى الفنون التشكيلية أن تمسك بريشتك وترسم صورة مقاربة للأصل للمنظر أو المشهد الذى وضعه الكاتب، فقد بدأ أقصوصته بوصف المكان الذى هو وعاء الحدث وصفا تفصيليا فقال يصف القصر"

"يستوقف نظر من تسوقه قدماه إلى تلك البقعة الهادئة الواقعة على النيل فى القاهرة قطعة أرض من بقايا الحقول تنظر إليها القصور فى ازدراء وكبر، لكن الخصب الكامن فى معدنها بدا كأنه يتلقى عنجهية المبانى بتسامح وعفو وإغضاء. كنفس العمل الذى يأتيه سكان هذه المبانى، ونفس العمل الذي يأتيه الكادحون فى هذه الأرض."

ثم قال يصف الكوخ:

"وهناك كوخ صغير يجثم بين قصرين ... جدرانه من صفيح وحطب، وطين وقصب ... وجثم كأنه رصد وكله فرعون بكنز ثمين، يتصاعد الدخان من بابه وسقفه وكواه والتفاريح التى تملأ جدرانه، فلو رأيته من بعيد لظننت أنه يحترق."

وبعد أن وصف المكان وصف بطل الأقصوصة أو الشخصية الرئيسية فى القصة، وهو الغلام "مرسى" وصفاً دقيقاً يستوعب كل ملامحه، ويفصح عن حالته النفسية، فلقد حدد سنه، ووصف شكله طولاً وعرضاً ولوناً، ووصف ملابسه، ووصف العمل الذى يتلهى به ليقطع أوقات الفراغ، يقول: "وكثيراً ما يأخذ بصرك أول ما يرخى الليل سدوله غلام فى السادسة من عمره، أسود، صعيدى، محلوق الرأس بغير انتظام، جميل العينين، أخضر الأسنان من كثرة أكل الخضر، واسع الجلباب، مفتوح الصدر، ترى هذا الغلام وقد جعل من إحدى الصفائح الفارغة دفا يوقع عليه غناء يطرب له جداً."

ونلاحظ أن كاتب القصة جعل شخصيتها الرئيسية شخصية تنتمى إلى صعيد مصر حتى توحى بما عليه أهل الصعيد من إباء وشمم، كما نلاحظ أنه عبّر بأوصاف تَنُمُّ عن فقره الشديد "محلوق الرأس بغير انتظام" ربما لأن أمه هى التى تقوم له بهذا العمل لأنه لا يمتلك مالاً يذهب به إلى الحلاق، "وأخضر الأسنان من كثرة أكل الخضر" ليشير بها إلى أن غذاء هذا الغلام يعتمد بالدرجة

الأولى على ما يخرج من الأرض من الخضر، وكأنه يريد أن يدل بهذا على شدة فقر هذا الغلام لأنه لا يأكل اللحم بسبب فقره "واسع الجلباب" ليدل على أن الجلباب الذى يرتديه لم يصنع خصيصا له، وإنما هو جلباب أبيه، أو جلباب أهدى إليه من أحد بعد أن استهلكه، ولم يعد يصلح للاستخدام، "مفتوح الصدر" يدل بها الكاتب على أن هذا الغلام لا يرتدى شيئاً تحت هذا الجلباب الواسع.

ولا يعتمد الكاتب فى وصفه على حاسة البصر وحدها، بل يتكئ فى وصفه على استخدام معظم الحواس التى يدرك بها الإنسان حقائق الأشياء، فمن إتكائه على الوصف السمعى قوله في وصف الكوخ: "لكنك حين تقترب منه يأخذ سمعك أول ما يأخذ غناء ناشز لا انسجام فيه يتردد بلهجة صعيدية ويراسله على البعد فى وسط الحقل بكاء لشادوف ينزف الماء من بئر غير غزيرة".

اللغة: لغة القصة فصيحة إلا فيما ندر، ويبدو في كثير من عباراتها تأثر المبدع بالثقافة اللغوية العربية والإسلامية التي درس طرفًا منها في كلية دار العلوم، ترى ذلك في قوله عند وصف الغلام " وكثيراً ما يأخذ بصرك أول ما يرخى الليل سدوله غلامٌ ..." حيث يستخدم في الحديث عن إقبال الليل تعبير امرئ القيس، الشاعر الجاهلي المشهور في معلقته واصفًا تراكم الظلام، وشدة وطأته عليه في قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علىَّ بأنواع الهموم ليبتلى

وفي موضع آخر يريد الكاتب أن يصف شوق مرسى إلى رؤية صاحبه الذي لم يعد ينزل من القصر بسبب مرضه، فيذكر أن مرسي صعد إلى حجرة صاحبه من الباب الخلفي حتى لا يراه أحد، ودخل فوجد صاحبه نائمًا يقول الكاتب: "فأقبل عليه كما يقبل الظامئ على المنهل"، ولا شك أن هذه الصورة مستمدة من الثقافة اللغوية العربية مثل سابقتها.

وفي نهاية القصة يبدو تأثره بالثقافة العربية وهو يقارن بين حال الكوخ الذي تسربل بالظلام بعد موت صاحبه، وحال القصر الذي ظل متوهجًا من كثرة الأضواء فيقول: "ثم أظلت الليلة التالية، فلم يوقد فى الكوخ مصباح، بل لبس الظلام منذ مدخل الليل حتى نهايته .. أما القصر فقد كان مشرقاً بأضوائه، مزهورا بجمال بنائه، فهل أحس بالزهو الذي يحسه الصنم حين يحرق تحت قدميه قربان؟!".

وقد وفق الكاتب في استخدام اللغة العامية في الأقصوصة حيث كانت هي اللغة التي يتكلم بها مرسي، وتتكلم بها أمه دائمًا، وهذا شيءٌ محمود للكاتب لأنهما غير متعلمين، وكذلك كانت أم عادل تتكلم بالعامية، وممن تكلم بالعامية أيضًا في القصة الأم التي كانت تسهر على رعاية ولدها بالمستشفى إلى جوار مرسي.

وإلى جوار اللغتين الفصحى والعامية نجد الكاتب يتكئ كثيرًا على معجم التعبيرات الدالة على الحركة الجسمية، فنراه يستخدم الانحناء إلى الأمام، ومصمصة الشفاه، وهز الرأس، والتنهد، والإشارة بالأصابع، لإثراء التعبير والتصوير في القصة.

وقد وقع الكاتب في بعض الأخطاء اللغوية والنحوية أذكر منها على سبيل المثال: تقديم التوكيد على المؤكد في أكثر من جملة كما في مثل قوله: "كنفس العمل الذي يأتيه سكان هذه المباني، ونفس العمل الذي يأتيه الكادحون فى الأرض" وكان الصواب أن يقول "كالعمل نفسه الذي يأتيه سكان هذه المباني، والعمل نفسه الذي يأتيه الكادحون في الأرض.

■ ■ ■

الفصل الثاني

نصوص للقراءة الجهرية، وموضوعات للمطالعة الصامتة

١- من الأمالي لأبي علي القالي: في الدعوة إلى السلام لمرثد الخير بن ينكف.

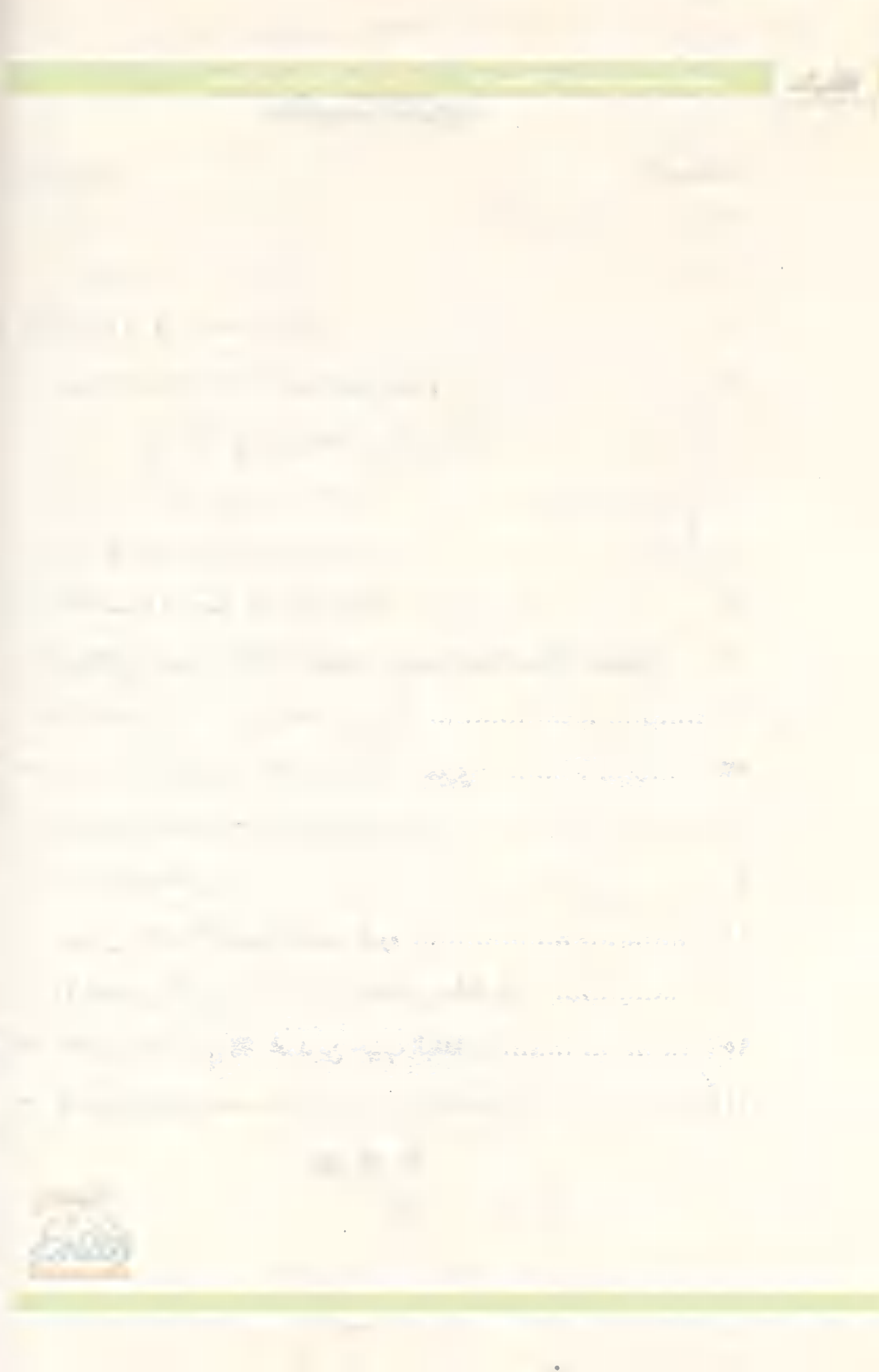
٢- من الأمالي لأبي علي القالي: في الرحلة إلى الإيمان لِخُنَافِر بن التوأم الحميري.

٣- من الأمالي لأبي علي القالي: في العتاب والفخر لذي الأصْبَع العَدْوَاني.

٤- من رجالات العرب: للدكتور نبيل محمد رشاد

- قس بن ساعدة الأيادي الخطيب المفوّه.
- الأحنف بن قيس الحليم الناصح للحاكم والمحكوم.

٥- كتاب أمهات النبي ﷺ للدكتور نبيل محمد رشاد



-١-

من الأمالي لأبي علي القالي في الدعوة إلى السلام لمرثد الخير بن ينكف

روى أبو علي القالي في أمالية قال: "وحدثنا أبو بكر - رحمه الله- قال: حدثنا السكن بن سعيد الجرموزي عن محمد بن عبَّادٍ عن ابن الكلبي عن أبيه قال: كان مَرْثَدُ الخير بن يَنْكفَ بن نوف بن مَعْدِ يكَرِب ابن مُضْحِي قَيلا[١]، وكان حَدِبًا على عشيرته، محبًّا لصلاحهم، وكان سُبَيعُ بنُ الحارث أخو عَلَس - وعَلَس هو ذو جَدَن - وميثم بن مشوب بن ذي رُعَين تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بن حيّيهما شَرٌّ فيتفانى جِذْماهما[٢]، فبعث إليهما مرثد ليُصلح بينهما فقال لهما: إن التخبط[٣]، وامتطاء الهجاج[٤]، واستحقاب[٥] اللَّجاج[٦] سيقفكما على شفا هُوَّةٍ في توردها بوار الأصيلة، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا[٧] أمركما قبل انتكاث[٨] العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين

---

(١) القَيْلُ: الملك من ملوك حمير، وسُمِّيَ بذلك لأنه يقول ما يشاء فينفذ.

(٢) جذماهما: الجِذْمُ: الأصلُ، وجِذْمُ الرجلِ: أهله وعشيرته.

(٣) التخبط: ركوب الرجل رأسه في الشرّ خاصة.

(٤) الهجاج: الرأي الذي لم يروَّ فيه.

(٥) استحقاب: استفعالٌ من الحقيبة، أو من الحقاب، وعلى الأول فمعناه أنه جعل اللجاج في وعائه، وعلى الثاني فمعناه أنه احتزم به.

(٦) اللجاج: النزاع.

(٧) تلافيا: تداركا.

(٨) انتكاث: انتقاض.

السُّهمة[1]، وأنتما في فسحة رافهة[2]، وقدم واطدة[3]، والمودة مثرية[4]، والبقيا معرضة[5]، فقد عرفتم أنباء مَنْ كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيُّور أمورهم، فتلافوا القَرْحَة[6] قبل تفاقم الثأي[7]، واستفحال الداء[8]، وإعواز الدواء[9]، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبَّت[10] عرى الإبقاء، وشمل البلاء[11].

فقال سُبَيْعٌ: أيها الملك، إن عداوة بني العلاّت[12] لا تبرئها الأساة[13]، ولا تشفيها الرُّقاة، ولا تستقل بها الكفاة؛ والحسد الكامن هو الداء الباطن، وقد علم بنو أبينا هؤلاء أنّا لهم ردءٌ[14] إذا رهبوا، وغيثٌ إذا أجدبوا، وعضدٌ إذا حاربوا، ومَفْزَعٌ إذا نُكِبُوا؛ وإنا وإيَّاهم كما قال الأول:

---

(١) السُّهْمَةُ: القرابة.

(٢) رافهة: ناعمة.

(٣) واطدة: ثابتة.

(٤) مثرية: متصلة.

(٥) معرضة: ممكنة.

(٦) القرحة: الجراحة، والمقصود بها الداء.

(٧) الثأي: آثار الجرح.

(٨) استفحال الداء: اشتداده.

(٩) إعواز الدواء: امتناع وجوده.

(١٠) تقضّبت: تقطعت.

(١١) شَمِلَ البلاء: عَمَّ وانتشر.

(١٢) بنو العلات: إذا كانوا من أبٍ واحدٍ لأمهات شتى.

(١٣) لا تُبرئُها: لا تُشفِيها، والأساة: الأطباء، واحدها آسٍ.

(١٤) ردءٌ: عونٌ.

إذا مـــا عَلَـــوا قـــالوا أبونـــا وأُمُّنـــا

ولـــيس لهـــم عـــالينَ أمٌّ ولا أبُ

فقال ميثم: أيها الملك: إن من نَفِسَ[1] على ابن أبيه الزعامـة، وجَدَبَـه[2] في المقامة[3]، واستكثر له قليل الكرامة كـان قَرِفًـا[4] بالملامـة، ومؤنَّبًـا علـى تـرك الاستقامة، وإنّا والله ما نعتدُّ لهم بيد إلا وقد نالهم منـا كفاؤهـا، ولا نـذكر لهـم حسنة إلا وقد تطلع منا إليهم جزاؤها، ولا يتفيأ لهم علينـا ظِـلُّ نعمـة إلا وقـد قوبلوا بشرواها، ونحن بنو فَحْلٍ مُقْرَم[5] لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم، ولم تَنْزِعْنا أعراقُ السوء ولا إياهم، فعلام مـطُّ الخـدود، وخَـزَر[6] العيـون، والجخيـف[7] والتَّصَعُّر، والبأو[8] والتكبر؟ ألكثرة عدد، أم لفضل جَلَد، أم لطول معتقد؛ وإنـا وإياهم لكما قال الأول:

لاهِ ابَـــنُ عمِّـــك لا أفضَـــلْتَ في حَسَـــب

عـــني، ولا أنـــت ديَّـــاني فتخزونـــي[9]

---

(١) نَفِسَ عليه بكذا وكذا: ضَنَّ عليه به، ولم يحب أن يصل إليه.

(٢) جَدَبَه: عابه.

(٣) المقامة: المجلس.

(٤) قَرِفًا: جديرًا، ولا تستعمل إلا فيمن يستحق العقاب والمؤاخذة، أما من يستحق التكريم فيقال فيه جديرٌ، وحقيقٌ، وقمينٌ، وخليقٌ، وحَرِيٌّ.

(٥) مُقْرَم: سيِّدٌ معظَّم.

(٦) الخَزَرُ: النظر بمؤخر العين.

(٧) الجخيف: التهدُّد.

(٨) البأو: التكبر.

(٩) تخزوني: تقهرني وتسوسني، والبيت الذي الاصبع العدواني، من نونيته في عتاب شخص اسمه عمرو. راجعها كاملة في المبحث الثالث من هذا الفصل.

ومقاطعُ الأمور ثلاثة: حربٌ مبيرة، أو سَلْمٌ قريرة، أو مداجاة[1] وغفيرة[2].

فقال الملك: لا تُنْشِطُوا[3] عُقَلَ الشوارد، ولا تُلْقِحُوا العُون[4] القواعد، ولا تُؤَرِّثوا[5] نيرَان الأحقاد، ففيها المتلفة المستأصلة، والجائحة والأليلة[6]، وعَفّوا بالحِلْم أبلاد[7] الكَلْم، وأنيبوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأقصد، فإن الحرب تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ[8] الغرور، وتُدْبِرُ بالويل والثبور، ثم قال الملك:

ألا هل أتى الأقوامَ بذلي نصيحةً ... حَبَوتُ بها مني سُبَيْعًا ومَيْثَما

وقلت اعلما أن التدابُر غَادَرتْ ... عواقِبُهُ للذُّلِّ والقُلِّ[9] جُرهُمَا

فلا تَقْدَحَا زَنْدَ العقوق وأبْقِيا ... على العِزَّةِ القَعْسَاءِ[10] أن تَتَهَدَّمَا

ولا تُجْنِيَا حربًا تُجُرُّ عليكُمَا ... عواقِبُهَا يومًا مِنَ الشَّرِّ أشْأَمَا

فإنَّ جناةَ الحرب للحَيْنِ[11] عُرْضَةٌ ... تُفَوِّقُهُمْ[12] منها الذُّعَافَ[13] المُقَشَّمَا[14]

حذارِ فلا تَسْتَنْبِثُوها[15] فإنها ... تُغَادِرُ ذا الأنفَ الأشَمَّ مُكَشَّمَا[16]

---

(١) المداجاة: المساترة.

(٢) الغفيرة: الغفران.

(٣)لاتنشطوا: لاتعقدوا.

(٤)العون: جمع عوان وهي الحرب إذا قوتل فيها المرة بعد المرة

(٥)لا تؤرثوا: لا تذكوا.

(٦) الأليلة: الثكل.

(٧) أبلاد: آثار.

(٨) الزبرج: السحاب.

(٩) الذُلُّ: الذِّلَّة، والقُلُّ: القِلَّة.

(١٠) القعساء: الثابتة.

(١١) الحين: القتل، والموت، والمِنيَّة.

(١٢) تُفَوِّقُهُم: تسقيهم.

(١٣)الذُّعَافُ: السُّمُّ.

(١٤) المقشم: المخلوط.

(١٥) لا تستنبثوها: لا تُثيروها.

(١٦) المكَشَّم: المقطوع.

-٢-

من الأمالي لأبي علي القالي

في الرحلة إلى الإيمان لِخُنَافِر بن التوأم الحميري

روى أبو علي القالي في أماليه قال: وحدثنا أبو بكر قال: حدثني عمي عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه قال: كان خنافر بن التوأم الحِمْيَرِيُّ كاهنًا، وكان قد أُوتِيَ بَسْطَةً في الجسم، وسَعَةً في المال، وكان عاتيًا[١]، فلمّا وَفَدَتْ وفودُ اليمن على النبي ﷺ، وظهر الإسلامُ أغارَ على إبلِ لمرادٍ[٢] فاكتسحها[٣]، وخرج بأهله وماله، ولَحِقَ بالشّحْرِ[٤]، فحالف جَودان بن يحيَيَ الفِرضمي، وكان سيِّدًا منيعا، ونزل بوادٍ من أوديةِ الشحر مخصب كثير الشجر من الأيكِ والعرين[٥]، قال خنافر: وكان رئيي[٦] في الجاهلية لا يكادُ يتغيبُ عني، فلمّا شاع الإسلامُ فقدتُهُ مدةً طويلة، وساءني ذلك، فبينا أنا ليلةً بذلك الوادي نائمًا إذ هَوَى[٧] هَوِيُّ العُقَاب[٨] فقال: خنافر!، قلت: شصار؟ فقال: اسمعْ أَقُلْ، قلت: قُلْ أسمعْ،

---

(١) عاتيًا: ظالمًا، من العتو، وهو تجاوز الحد في الظلم.

(٢) مراد: شخص كان قد عتا وخرج عن مألوف عادات قومه، وتبعَهُ أهلُه وكَوَّنَ قبيلة كان هو أبًا لها.

(٣) اكتسحها: كنسها إذ الكسح هو الكنس، والمقصود أنه لم يترك منها شيئًا دون أن يأخذه.

(٤) الشحْرُ: ساحل البحر بين عُمان وعَدَن.

(٥) الأيك: الشجر الكثير الملتف، واحده أيكة، والعرين: جماعة الشجر.

(٦) الرئي: كَغَنِيّ، ويكسر: جِنّيٌ يُرَى فَيُحَبّ.

(٧) هوى: نزل وَسقط.

(٨) العقاب: طائر معروف.

فقال: عه[1] تَغْنَمْ، لكل مدة نهاية، وكلُّ ذي أَمَدٍ إلى غاية، قلت: أجل، فقال: كُلُّ دولة إلى أَجَل[2]، ثم يُتاحُ لها حِوَل[3]، انتُسِخَتْ النِّحَل[4]، ورجعتْ إلى حقائقها الملل[5]، إنك سجير[6]، موصول؛ والنصحُ لك مبذول؛ وإني آنستُ[7] بأرض الشام نفرًا[8] من آل العُذَام[9] حكامًا على الحكام، يذبرون[10] ذا رونق[11] من الكلام، ليس بالشعر المؤلَّف، ولا السجع المتكلف، فأصغيتُ فزُجِرْت[12]، فعاودت فظُلِفت[13]؛ فقلت: بِمَ تُهَينِمُون[14]، وإلام تُعْتَزُون[15]؟ قالوا: خطابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع ياشصار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تنجُ من أوار النار[16]، فقلت: وما هذا الكلام؟

---

(١) عه: فعل أمر من وعى يعي بمعنى تَنَبَّهَ وحَفِظ.

(٢) أجل الأولى بمعنى نعم، وأجل الأخرى بمعنى زمن ومدة.

(٣) حوَل: التحول والزوال.

(٤) النِحَلُ: جمع نِحْلَة، والنحلة هي الدعوى من الادعاء، وتطلق على كل ديانة وضعية. والنسخ: الإزالة، والتغيير، والإبطال، وإقامة شيء جديد بعد ذلك.

(٥) الملل: جمع ملة، والملة: الشريعة أو الدين.

(٦) السَجير: الخليلُ الصَفيُّ، وتجمع على سُجَرَاء.

(٧) آنستُ: أبصَرْتُ.

(٨) نفرًا: النفر الجماعة من الرجال دون العشرة.

(٩) آل العذام: قبيلة من قبائل الجن

(١٠) يَذْبُرون: يقرأون، ويزبرون: يكتبون.

(١١) رونق: حُسْن.

(١٢) أصْغيتُ: استمعتُ، وزُجِرتُ: نُهِيتُ.

(١٣) ظُلِفتُ: مُنِعتُ.

(١٤) تُهَيْنُمون: الهيمنةُ الصوتُ الخَفِيُّ، والهينوم الكلام الذي لا يُفْهم، وشصار يسأل النفر من آل العذام عن حديثهم الخافت الذي لم يستطع أن يفهم منه شيئًا.

(١٥) تعتزون: تنتسبون.

(١٦) أوار النار: سعيرها.

فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان، رسولٌ من مُضَر، من أهل المدر، ابتُعِثَ فظَهَر، فجاء بقول قد بَهَر[1]، وأوضح نهجًا قد دَثَر[2]، فيه مواعظُ لمن اعتبر، ومعادٌ لمن ازدجر[3]، أُلِّفَ بالآي الكُبَر؛ قلتُ: ومن هذا المبعوثُ من مضر؟ قال: أحمدُ خيرُ البشر، فإنْ آمنتَ أُعطِيتَ الشُّبَر[4]، وإنْ خالفتَ أُصْلِيتَ سقَر؛ فآمنْتُ يا خنافر، وأقبلْتُ إليك أبادِر، فجانِبْ كلَّ كافر، وشايع كلَّ مؤمنٍ طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق؛ قلتُ: ومن أين أبغي هذا الدين؟ قال: من ذاتِ الإحَرِّين، والنفر اليمانين، أهل الماء والطين؛ قلت: أوضح، قال: الحق بيثربَ ذاتِ النخل، والحَرَّة[5] ذات النَّعل[6]، فهناك أهلُ الطَّول والفضل، والمواساة والبذل؛ ثم امَّلَس عني[7] فبت مذعورا أراعي الصباح[8]، فلما برق لي النورُ امتطيتُ راحلتي[9]، وآذنتُ أعبُدِي[10]، واحتملْتُ بأهلي[11] حتى ورَدْتُ الجوف، فـرَدَدْتُ الإبلَ على أربابها بحُولِها وسِقَابها[12]، وأقبلتُ أريدُ صنعاءَ،

---

(١) بهر: أضاء، وأعجب.

(٢) دثر: قَدُمَ، ودَرَس.

(٣) مَعَاذ: ملجأ، وازدجر: انتهى وامتنع.

(٤) الشُّبَر: الخير.

(٥) الحرَّة: أرض ذات حجارة نخرة سود، وهي موضع بين المدينة والعقيق، وقيل: ظاهر المدينة، وقيل: قِبْلِيٌّ المدينة.

(٦) النعل: القطعة الغليظة من الأرض، يبرق حصاها ولا تنبت.

(٧) امَّلس عني: اختفى، ولم يرجع.

(٨) أراعي الصباح: أراقبه.

(٩) امتطيتُ راحلتي: ركِبْتُ ناقتي.

(١٠) آذنتُ أعبدي: أخبرت عبيدي، وأعلمتهم للتهيؤ للسَّفر.

(١١) احتملت بأهلي: سِرْتُ بهم.

(١٢) بحولها وسقابها: الحول جمع حائل، وهي الأنثى من أولاد الإبل ساعة تولد. القاموس المحيط: ٣/ ٣٥٣، والسِّقاب: جمع سقْب، وهو الذكر من أولاد الإبل ساعة يولد. القاموس المحيط: ١/ ٨٢.

فأصبتُ[1] بها مُعَاذَ بَنَ جَبَلٍ أميرًا لرسول الله ﷺ، فبايعْتُهُ على الإسلام، وعلمني سورًا من القرآن؛ فمَنَّ الله عَلَيَّ بالهدى بعد الضلالة، والعلم بعد الجهالة؛ وقلتُ في ذلك:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ عَادَ بِفَضْلِهِ ... فَأَنْقَذَ مِنْ لَفْحِ الزَّخِيخِ[2] خُنَافِرَا

وَكَشَّفَ لي عن جَحْمَتَيَّ[3] عَمَاهُمَا ... وأوضح لي نهجي وقد كانَ داثر

دعاني شصَارٌ للتي لو رفضتُها ... لأُصْلِيتُ حمرًا من لظى الهَوبِ[4] واهِرَا[5]

فأصبَحْتُ والإسلام حشوُ جوانحي ... وجَانَبْتُ من أمسي عن الحقِّ نَائرا[6]

وكان مُضِلِّي مَنْ هُدِيتُ بِرُشْدِه ... فَلِلَّهِ مُغْوٍ عَادَ بالرُّشْدِ آمِرَا

نَجَوتُ بحمدِ الله مِنْ كُلِّ قُحْمَةٍ[7] ... تُؤَرِّثُ هُلْكًا[8] يوم شَايعْتُ شَاصِرا[9]

وَقَدْ أَمَنَتْنِي بَعْدَ ذَلِك يُحَابرٌ ... بما كُنْتُ أُغْشَى المندِياتِ يُحَابرا

فَمَنْ مُبْلِغٌ فتيان قومي أَلوكَةً[10] ... بأَنِّي مِنْ أَقْتَالِ[11] مَنْ كانَ كافِرَا

عليكم سَوَاءَ القَصْدِ لا فُلَّ حدُّكُمْ ... فَقَدْ أصبحَ الإسلامُ للكفرِ قاهِرَا

---

(١) فأصبت بها معاذ بن جبل: أي وَجَدْتُ بها معاذ بن جبل.

(٢) الزخيخ: النار.

(٣) جَحْمَتَيَّ: عيناي.

(٤) الهوب: النار.

(٥) واهرا: الواهر الهواء الساكن مع شدة الحر.

(٦) نائرا: نافرا هائجًا.

(٧) قُحْمَة: شِدَّة.

(٨) تؤرِّثُ هُلْكًا: أي تجعل الهلاك من إرثي، والإرث هو الميراث، والنصيب.

(٩) شايعتُ: اتَّبعتُ، وناصرتُ.

(١٠) ألوكة: رسالة.

(١١) أقتال: الأقتال جمع قِتْل بكسر القاف، وهو العدو والمقاتل. القاموس المحيط ٤/ ٣٥.

-٣-

من الأمالي لأبي علي القالي

في العتاب والفخر لذي الإصْبَع العَدْوَاني(*)

١ يا مَنْ لِقَلْبٍ طويلِ البثِّ[(١)] محزون ... أمسى تذكر ريا أمَّ هارون

٢ أمْسَى تُذَكِّرُهَا مِنْ بَعْدِمَا شَحَطَتْ[(٢)] ... والدهرُ ذو وغلظةٍ حينًا وذولين

٣ فإنْ يَكُنْ حُبُّها أمسى لنا شَجَنًا[(٣)] ... وأصبحُ الوأيُ[(٤)] منها لا يواتيني[(٥)]

٤ فَقَدْ غَنِينَا[(٦)] وشملُ الدار يجمعُنَا ... أطيعُ ريًّا، وَرَيًّا لا تُعَاصِيني

٥ نَرْمِي الوُشَاةَ فلا نُخْطِي[(٧)] مَقَاتِلَهُمْ ... بصَادِقٍ من صفاءِ الوُدِّ مَكْنُونِ[(٨)]

٦ ولي ابنُ عَمٍّ على ما كان مِنْ خُلُقٍ ... مختلفان فأقليه ويَقْلِيني[(٩)]

(*) هو حرثان بن مُحَرِّث، شاعر جاهلي قديم، عُمِّرَ طويلا، ومات قبل الإسلام.

(١) البثُّ: أشدُّ الحزن، والشاعر يأسى على قلبه الذي استولى عليه الحزن والكمد بعد أن تذكر محبوبته أمّ هارون.

(٢) شحطت: بَعُدَتْ.

(٣) شجنًا: الشَّجَنُ الهم والحزن.

(٤) الوأي: الوعد.

(٥) لا يواتيني، وفي رواية يؤاتيني، والمقصود أنها أصبحت تُخْلِفَ الوعد، ولا تفي به.

(٦) غنينا: أقمنا وعشنا. القاموس المحيط ٤/ ٣٦٤.

(٧) فلا نخطي: الأصل فلا نخطئ، وحذفت الهمزة لضرورة الشعر.

(٨) استهلّ الشاعر قصيدته بالغزل على عادة الجاهليين ليستميل القلوب، ولتصغى إليه الآذان، ثم انتقل بعد هذا البيت الخامس إلى العتاب والفخر.

(٩) خُلُقٍ: تخالُقٍ وتعاملٍ بيني وبينه، وأقلية ويقليني: لا أرتاح لطريقته في الحياة، ولا يرتاح لطريقتي فيها.

٧ أزري[١] بنا أننا شالت نعامتنا[٢] فخالني دونه بل خلته دوني[٣]

٨ لاهِ ابنُ عمك[٤] لا أفضلتَ في حسب[٥] عني ولا أنتَ دياني[٦] فتخزوني[٧]

٩ ولا تقوتُ عيالي يوم مَسْغَبَةٍ[٨] ولا بنفسك في العزاء[٩] تكفيني

١٠ فإنْ تُرِدْ عَرَضَ الدنيا بمنقصتي[١٠] فإنَّ ذلك مما ليس يُشْجيني[١١]

١١ ولاَ يُرَى فِيَّ غيرَ الصبر منقصةٌ وما سواهُ فإنَّ الله يكفيني

١٢ لولا أواصِرُ[١٢] قُربَى لَسْتَ تحفظُها ورهبةُ الله في مولىً يُعَادِيني

١٣ إذًا بريتُك[١٣] بريًا لا انجبارَ له إني رأيتُكَ لا تنفكُّ تَبْرِيني

١٤ إنّ الذي يقبضُ الدنيا ويَبْسُطُها إن كان أغناك عنّي سوف يُغْنِيني

١٥ الله يعلمُني، والله يَعْلَمُكم والله يَجْزِيكُمُ عنِّي، ويَجْزِيني

---

(١) أزري بنا: تَنقَّصَنَا وعابنا.

(٢) شالتْ نعامتُنا: افتقرنا لتفرقنا، وذهاب عِزِّنا.

(٣) خالَ: حَسِبَ أو ظنَّ، وخالني دوني أي توهم أنني أقل منه رتبة، وذلك لما معه من المال، وخلته دوني أي والحقيقة أنني أراه أقل منى لأنه عارٍ مما أتحلى به من الحلم، والصبر، ولين الجانب للصغير والكبير من أهلي وقومى.

(٤) لاهِ ابنُ عمك: لله ابن عمِّك.

(٥) الحِسَبُ: الشرف الثابت في الآباء، أو الدين، أو الكرم. القاموس المحيط ١/ ٥٤.

(٦) ديَّاني: من دانه بمعنى غلبه وقهره، وفي الحديث "الديان لا يموت"، والديان هو الله ﷻ لأنه هو القاهر فوق عباده، ولأنه غالب على أمره عز شأنه.

(٧) تخزوني: تُسيِّرُني، وتسوسنى.

(٨) ولا تقوت عيالي: المقصود ولا أنت تقوتُ: أي تُطْعِمُ، عيالي من أعولهم، والمسغبة: المجاعة من سَغِبَ، وسَغَبَ، وفي القرآن العظيم ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ سورة البلد، آية رقم ١٤.

(٩) العَزَّاءَ: السَّنَةُ الشديدة.

(١٠) عرض الدنيا: التباهي والتفاخر، بمنقصتي: بتنقُّصي وشتمي.

(١١) يشجيني: يوقعني في الحزن.

(١٢) أواصر قربي: علاقات قرابة، جمع آصرة.

(١٣) بريتك: قطعتك.

١٦ مــاذا عَلَــيَّ وَإِنْ كُنْـتُمْ ذوي رَحِمِــي | ألاَّ أحِـــبَّكُمُ إذْ لم تُحِبُّـــوني
١٧ عَنِّــي إليــكَ فَمـــا أمِّــي براعيــة | ترعى المخاض[1]، ولا رأي بمغبونِ[2]
١٨ إنِّــي ابــيٌّ أبِــيٌّ ذو محافظــةٍ | وابــنُ أبِــيٍّ أبِــيٌّ مــن أبِيِّيــن
١٩ لا يُخْرِجُ القَسْرُ[3] مِنِّي غَيْرَ مابيةٍ[4] | ولا الــبَيْنُ لِمَــن لا يبتغــي لــيني
٢٠ عَفٌّ يؤوسٌ[5] إذا ما خِفْتُ مـن بلـدٍ | هونًا فَلَسْتُ بوقـاف على الهُونِ[6]
٢١ كُـلُّ امـرئٍ صـائِرٌ يومًـا لشَـيمتهِ[7] | وإنْ تَخَلَّـقَ[8] أخلاقًـا إلى حِـينِ[9]
٢٢ وَالله لــو كَرِهَــتْ كَفِّــي مُصَـاحبَتِي | لَقُلْتُ إذْ كَرِهَتْ قُرْبِـي لهـا بيـنِي[10]
٢٣ إنِّـي لَعَمْـرُكَ مـا بـابي بـذي غَلَـقٍ | عن الصديق، ولا خيري بممنونِ[11]

---

(١) ترعى المخاض: قال أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري: اي لَسْتُ بابن أمَةٍ، ويقال إنه عرَّض به، وكان ابن أمَة. قال الأصمعي وإنما خصَّ رعيَّة المخاض لأنها أشدُّ من رعيَّة غيرها، ولا يُمتَهَنُ فيها إلا من حقَرَ ولم يُبَالَ به. شرح المفضليات، نشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهر ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٢٣.

(٢) مغبون: ضعيفٌ، وتافه، وقد افتخر الشاعر في هذا البيت بأمه، وبآرائه الصائبة التي لا يتجاوزها الناس.

(٣) القسْرُ: القهر، والعنف، والشدة.

(٤) مابية: من الإباء، وهو الرفض في شَمَم وأنَفَة.

(٥) العَفُّ هو العفيف، وهو الذي يكفُّ عما لا يَحِلُّ ولا يَجْمُل، ويؤوس: قنوط، واليأس ضد الرجاء، والمقصود أنه لا يرتجي شيئًا مما عند الناس.

(٦) الهون، والهوان: المذلة.

(٧) شيمة الإنسان: طبعه الذي فُطِرَ عليه.

(٨) تخلَّقَ: على زنةِ تفَعَّلَ، أي تحوَّلَ عن طبعه، وتكلف ما ليس عنده من محمود الخلال.

(٩) إلى حين: إلى وقت معلوم، وزمن محدود.

(١٠) بيني: فعل أمر من بان يبين، أي فارقي وارحلي.

(١١) الخير: المال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ سورة العاديات، رقم الآية٨ ، وممنون: مقطوع، ومنه قول تعالى: ﴿ وإنَّ لَكَ لأجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ سورة القلم، آية ٣، يقول الشاعر لا أغلق بابي في وجه الصديق ولا أبخل بشيءٍ من مالي عنه.

٢٤ وما لساني على الأدنى[1] بمنطلقٍ ... بالمنكراتِ، ولا فتكي بمأمونِ

٢٥ عندي خلائِقُ أقوامٍ ذوي حَسَبٍ ... وآخرين كثيرٌ كُلُّهُم دوني

٢٦ وأنتم مَعْشَرٌ زَيْدٌ على مائةٍ[2] ... فأجمِعوا أمرَكُمْ طُرًّا فكيدُوني

٢٧ فَإِنْ علمتمْ سبيلَ الرُّشْدِ فانطلقوا ... وإن جَهِلْتُمْ سبيلَ الرُّشْدِ فَأْتوني

٢٨ يارُبَّ ثوب[3] حواشيه كأوسَطِه ... لا عيبَ في الثوبِ منْ حُسْنٍ ومنْ لينِ

٢٩ يومًا شَدَدْتُ على فرغاءَ فَاهِقَةٍ[4] ... طورًا من الدهر تاراتٍ تُمَارِيني

٣٠ قد كنتُ أعطيكُمُ مالي وأمنحكم ... وُدِّي على مُثْبَتٍ في الصَّدْرِ مكنونِ

٣١ يارُبَّ حَيٍّ شديدِ الشَّغْبِ[5] ذي لجَبٍ[6] ... دعوتهم راهنٍ منهم ومرهونِ

٣٢ رَدَدْتُ باطِلَهُمْ في رأسِ قائلهمْ ... حتى يظلوا جميعًا ذا أفانينِ

٣٣ يا عمرو لو لِنْتَ لي ألفيْتَنِي[7] يَسَرًا ... سمحًا كريمًا أجازي مَنْ يُجَازِيني

■ ■ ■

---

(١) الأدنى: الأقل رتبة أو منزلة، ولعله يعني بها حفدته وخدمه، وعبيده وإماءه، والشاعر يريد أن يقول: إذا كانت هذه حالي مع هؤلاء فكيف تكون أخلاقي مع الأتراب والأنداد؟!.

(٢) زيد على مائة: أي تزيدون على مائة.

(٣) ثوب: سيف، وقد سُمِّيَ السيف ثوبًا لأن كل ذي سلاح يثوب إليه.

(٤) الفرغاء: الطعنة التي تُحْدِثُ جرحًا كبيرًا واسعًا، والفاهقة التي تفهقُ بالدم.

(٥) الشَغب: تهيجُ الشرِّ.

(٦) ذولجب: ذو صياحٍ وجلبة.

(٧) ألفيتني: وجدتني.

- ٤ -

من رجالات العرب

- ١ -

قس بن ساعدة الإيادي
الخطيب المفوَّه

هو قس بن ساعدة الإيادي حكيم العرب، وطبيبها، وخطيبها المشهور الذي لا يشق له غبار، ولا يباريه مبار في فصاحته ولسنه، أورد له ابن عبدربه الأندلسي في كتابه "العقد الفريد" فقرًا ومقطوعات من كلامه نستشف منها أنه كان راجح العقل، وافر الحلم، سديد الرأي، مقدمًا عند ملوك الناس، وقادة الشعوب في عصره، ووصفه ابن قتيبة في كتابه "المعارف" بأنه كان موقنا بآيات الله، ولعل ابن قتيبة يقصد بهذا الوصف ما عرف عنه من عزوفه عن عبادة الأصنام، واعتقاده بأن هذا الكون لابد أن يكون له خالق يتصف بالعظمة والقوة والجبروت، والحكمة والرحمة والعدل، وأن بني الإنسان لابد أنهم صائرون إليه في نهاية المطاف ليحاسب كل واحد منهم عما عمل في حياته، ويثاب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته. روي ابن عباس ﷺ قال: قدم وفد إياد على رسول الله ﷺ فقال: أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: كلنا يعرفه: قال: فما فعل؟ قالوا: هلك، قال: ما أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، سحائب تمور، ونجوم تغور، في فلك يدور، ويُقْسِمُ قس قسمًا إن لله لدينا هو أرضى من دينكم هذا. ثم قال: ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟

أرضوا بالإقامة فأقاموا؟ أم تُرِكُوا فناموا؟ ثم قال رسول الله ﷺ لهم: أيكم يروي من شعره فأنشد بعضهم:

في الـــذاهبين الأوليـــــ	ـــن من القـرونِ لنـا بصـائر
لمـــا رأيـــتُ مـــوارِدًا	للمـوتِ لـيس لهـا مصـادر
ورأيـــتُ قـــومِيَ نحوهـــا	يمضــي الأكـابرُ والأصـاغر
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا	لـةَ حيـث صـار القـومُ صـائر

لقد أورد هذا النص غير واحدٍ من علمائنا القدامى بيد أن الجاحظ قد التفت التفاتة ذكية إلى هذا الشرف العظيم الذي حصل عليه قس بن ساعدة، ذلك أن النبيﷺ هو الذي روى هذه الخطبة التي قالها هذا الخطيب المفوه بسوق عكاظ، وقد علق الجاحظ على هذا فقال "وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال" ثم مضى يتلمس الأسباب التي أدت إلى أن يحوز قسٌ هذا الشرف فقال: "وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه بالعبث".

وروى الإخباريون ما كان بين قس بن ساعدة وقيصر الروم في عصره من محاورات.

فمن ذلك قولهم: قال قيصر لقس: صف لي مقدار الأطعمة فقال: "الإمساك عن غاية الإكثار، والبقيا على البدن عند الشهوة، وقال له: ما أفضل المعرفة؟ فقال: معرفة الرجل نفسه، فقال: فما أفضل العلم؟ فقال: وقوف المرء عند علمه، فقال له: فما أفضل المروءة؟ فقال: استبقاء الرجل ماء وجهه.

والذي تدل عليه هذه النصوص أن قيصر الروم كان يثق ثقة كاملة في قس ابن ساعدة بوصفه طبيبًا حاذقًا عارفًا بأسباب الأدواء، ووسائل المداواة، وبوصفه حكيمًا وفيلسوفًا من كبار حكماء زمنه وفلاسفته.

٢ـ٤

الأحنف بن قيس

الحليم الناصح للحاكم والمحكوم

هو صخر بن قيس بن معاوية بن حصن بن عباد بن مرة بن عبيد التميمي، أسلم، وأسلم معه قومه بإشارته ورأيه حين وفد إليهم الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وظل بديار قومه لم يبرحها طوال حياة الرسول الكريم ﷺ ومدة خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، ولكنه خرج عن منهجه هذا في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، حيث تذكر المصادر التاريخية والأدبية أنه وفد عليه، وجالسه، وكان عنده صاحب رأي ومشورة، ثم انخرط بعد ذلك مشاركًا في الحياة السياسية العربية حيث شهد مع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وقعة صفين، إلا أنه لم يشهد موقعة الجمل مع أحد الفريقين المتنازعين، وكان كثيرًا ما يفد على معاوية بن أبي سفيان بعدما تولى الخلافة مقدمًا له النصح والرأي.

ولقد تحدث الإخباريون أنه كان مُعِمًا مُخْوِلاً، وأنه كان يفاخر بذلك،فلقد كان عمه الأكبر المتشمس بن معاوية الذي وُصِفَ بأنه يزيد على الأحنف في حلمه، وكان خاله الأخطل بن قُرط أحد شجعان العرب المعدودين، وكان الأحنف يباهي به في كل مجلس ونادٍ ويقول: ومن له خالٌ مثل خالي.

ويبدو أن الأحنف بن قيس قد كان دميم الخلقة، فقد نص الرواة على أنه كان صعل الرأس - أي دقيقها - أحجن الأنف، أغضف الأذن - أي مائلها في استرخاء ظاهر - متراكب الأسنان، أشدق - أي واسع الشدق -، ناتئ الوجه، أعور العين باخقها، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، ولكنه لم تمنعه هذه العيوب الخِلْقِيَّة من أن يكون سيدًا في قومه، ومثله ينهض دليلاً على أن العرب قد بلغوا من الشرف والرفعة حدًا لم تستطع بلوغه إلى الآن المدنيات المعاصرة،

وآية ذلك أنهم وزنوا الرجال بالموازين الصحيحة العادلة، فليست العبرة بطول الإنسان وعرضه، ولا ببياض بشرته ووسامة خِلْقَتِه، وإنما العبرة بمكارم أخلاقه، ومحامد شيمه، على حين أن تلك المدنيات تعرف ألوانًا من التمييز بين البشر على أساس اللون حينا، وعلى أساس العرق حينًا، كما تعرف ألونًا من الفنون التي تقوم على السخرية من هؤلاء، والهزء بهم عن طريق تضخيم معايبهم الخِلْقِيَّةِ وإبرازها، وإضحاك الناس عليها.

على أن الأحنف بن قيس كان حريصًا على أن يبدو في أبهى صورة، وآنق حلة، وأجمل هيئة، وكان يحض الناس على التجمل، فمن أقواله المأثورة: استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال، كما كان يوصي بالاهتمام بالصحة حتى يظل الإنسان قويًا متماسكًا قادرًا على العمل والكسب، ومن أقواله في ذلك: الزم الصحة يلزمك العمل، وسئل يومًا: ما المروءة؟ فقال: العفة والحرفة، ومعنى هذا أن مروءة الرجل لا تكتمل عنده إلا بأمرين مهمين: الأول: أن يكون عفيفًا فاضلا، لا ينظر إلى محارم الآخرين، ولا تتعلق نفسه بشيء من الخنا والفجور، والثاني: أن يكون له عمل يكتسب منه قوته، وقوت من يعول، ويكفه عن سؤال الناس.

ودخل الأحنف على معاوية بن أبي سفيان فأشار إلى الوساد فقال له: اجلس. فجلس على الأرض، فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد فقال: يا أمير المؤمنين إن فيما أوصي به قيس بن عاصم المنقري ولده أنه قال: لا تَغْشَ السلطان حتى يملَّك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتُقَامَ له فيكون قيامك زيادة له، ونقصانًا عليك، حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: لقد أوتيتَ تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلم.

■ ■ ■

-٥-

(كتاب أمهات النبي ﷺ لمحمد بن حبيب البغدادي)(*)

نشرة د/ محمد عبدالقادر أحمد

دراسة في نقد الكتب، وأصول نشر التراث

-١-

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق هدفين اثنين: أولهما:- محاولة التعرف على الأصول النظرية المتعلقة بتحقيق التراث ونشره كما وضعها المستشرق الألماني برجستراسر، وإلى أي مدى يتم الالتزام بها وتطبيقها فيما يحقق وينشر من نصوص تراثية.

والهدف الآخر هو محاولة التعرف على الفروق المنهجية والإجرائية عند معالجة التراث العربي ونشره وذلك عند جيلين من المحققين والناشرين أولهما جيل الرواد من سدنة التراث العربي والإسلامي، والآخر جيل الدارسين من الأكاديميين والأساتذة الجامعيين.

وقد توسلتُ إلى تحقيق هذين الهدفين بدراسة نشرة كتاب أمهات النبي ﷺ لمحمد بن حبيب البغدادي المتوفي ٢٤٥هـ التي أخرجها الدكتور محمد عبدالقادر أحمد عام ١٩٨٢م بالقاهرة، ومقارنتها بالنشرة البغدادية التي أخرجها الدكتور حسين محفوظ عام ١٩٥٢م.

واستخدمت هذه الدراسة المنهج الوصفي حيث عنيت بوصف صنيع كل

(*) نُشِرَتْ هذه الدراسة من قبل بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق، المجلد التاسع والأربعين الصادر في ربيع ٢٠٠٩م الصفحات من ١٣١- ١٥٤.

من المحققين الجليلين في نشرهما للكتاب مع بيان ما يحمل هذا الصنيع بين جنباته من إيجابيات، وما ينطوي عليه من سلبيات.

-٢-

نشر الدكتور محمد عبدالقادر أحمد كتاب أمهات النبي ﷺ لمحمد بن حبيب البغدادي محققاً في مكتبة النهضة المصرية، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، وقد جاء في اثنين وأربعين ومائة صفحة من القطع الصغير، ويشغل نص كتاب ابن حبيب المحقق الصفحات من الصفحة التاسعة والسبعين إلى الصفحة السابعة والتسعين من الكتاب.

ولهذا الكتاب مع الدكتور محمد عبدالقادر أحمد قصةٌ، ذلك أن الدكتور حسين على محفوظ الناشر الأول للكتاب كان قد أهدى نسخة من نشرته إلى المحقق العلامة الأستاذ عبدالسلام محمد هارون رحمه الله تعالى.

وظلت نشرة الدكتور محفوظ قابعة في مكتبة الأستاذ عبدالسلام هارون ردحاً من الزمن إلى أن وقع عليها الدكتور محمد عبدالقادر فأخذ يتصفحها ويقلبها، ويطيل النظر فيها إلى أن أدرك نفاستها وأهميتها، ورآها خالية من التحقيق، والتقديم، والدرس فرغب إلى أستاذه العلامة عبدالسلام هارون أن يعيره إياها ليعيد تحقيقها، ودرسها، ونشرها، وفي هذا يقول: "وقد سمح لي العلامة الأستاذ عبدالسلام هارون بتصوير هذه النسخة المطبوعة من كتاب أمهات النبي ﷺ والتي أهداها له الناشر الدكتور حسين علي محفوظ في ١٩/ ٦/ ٥٧، وأشهد أني استفدت منها"[1].

ويتابع الدكتور محمد عبدالقادر أحمد حديثه فيقول: "وبعد قراءتي لهذه النسخة ازداد تصميمي على طبع الكتاب بالأسلوب الذي رسمته، وبطريقة

---

(١) كتاب أمهات النبي ﷺ ص٥٩.

التحقيق العلمي الذي تعلمناه، ونعلمه لتلاميذنا المبتدئين في الجامعة، أولاً لأن الكتاب جاء بطبع صورة المخطوطة، وثانياً لأننا لا نملك من هذه النشرة - فيما أعلم- سوى النسخة المهداة من المؤلف[1] للأستاذ عبدالسلام هارون، وثالثاً لأن هذه النشرة تمت في بغداد سنة١٩٥٢م، أي مضى عليها تسعة وعشرون عاماً[2].

ولقد قام الدكتور محمد عبدالقادر أحمد بإعادة تحقيق الكتاب بالمنهج العلمي الذي تعلمه على أيدي رجال الطبقة الأولى من المحققين الجامعيين المصريين من أمثال العلامة عبدالسلام هارون -رحمه الله-، وسوف نَخُصُّ هذا التحقيق بنقد مستقل فيما يأتي من صفحات هذا البحث.

وقدَّم بين يدي التحقيق بحثاً كاشفاً عن المؤلِّف والمؤَلَّف جاء في ست وسبعين صفحة جرى فيها الحديث عن المؤلِّف محمد ابن حبيب البغدادي من حيث اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته، ومعاصريه من الأدباء والرواة، والعلماء من أمثال أبي زيد الأنصاري ت٢١٥هـ، والأصمعي عبدالملك بن قريب ت٢١٧هـ، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم ت٢٢٣هـ، وابن الأعرابي ت٢٣١هـ وغيرهم، ثم جرى الحديث بعد ذلك عن شيوخ ابن حبيب وتلاميذه، وعن كتبه، وقد وضعها في ثبت مرتبا إياها على حروف المعجم، وموضحاً ما هو منها مخطوط لم يحقق بعد، وما هو مطبوع منها دون تحقيق علمي، وما هو محقق منها ومنشور، وما هو في حكم الضائع منها مما فقد مع ما فقدناه على مر الزمان من ذخائر تراثنا.

---

(١)هذا سهوٌ من الدكتور محمد عبدالقادر احمد، وهو يقصد المحقق أو الناشر الدكتور حسين علي محفوظ.

(٢) كتاب أمهات النبي ﷺ ص٥٩، ٦٠.

وتلا ذلك حديث عن وفاة محمد بن حبيب البغدادي، وحديث آخر عن مكانته العلمية.

ولقد جاء هذا الجزء الأول من الدراسة في سبع وثلاثين صفحة كان حرياً بالدكتور محمد عبدالقادر أحمد أن يجعل منها الفصل الأول من فصول الدراسة وأن يمنحه عنواناً جامعاً يضم شتيت المسائل العلمية التي عرضناها قبلُ، وكان من الممكن أن يُسَمَّى هذا الفصل: "محمد بن حبيب البغدادي من المهد إلى اللحد".

ولي على هذا الجزء الأول من أجزاء الدراسة مجموعة من الملاحظات أبرزها في النقاط الآتية:-

أولاً: لقد صمتت المصادر التي ترجمت لمحمد بن حبيب البغدادي- على كثرتها- عن تحديد تاريخ ميلاد هذا المؤرخ الأديب، ولقد حاول الدكتور محمد عبدالقادر أحمد تحديد هذا التاريخ على وجه التقريب منطلقاً في ذلك من تحديد المؤرخين القدماء تاريخ وفاته، حيث أجمع مترجموه على أنه توفى لسبع بقين من ذي الحجة سنة خمسٍ وأربعين ومائتين بسرّ من رأي في خلافة المتوكل[1]، ووجد الدكتور محمد عبدالقادر أن من أساتذة ابن حبيب البغدادي وشيوخه أبا اليقظان سحيم بن حفص الإخباري والنسّابة المشهور المتوفي سنة١٩١هـ، وافترض المحقق أن يكون ابن حبيب قد بدأ يلتحق بمجالس هذا الشيخ العلمية في هذا التاريخ، أي في عام ١٩١هـ، وافترض -أيضاً- أن تكون سن ابن حبيب في هذا الوقت خمس عشرة سنة، وخرج من هذين الفرضين بأنه من الممكن أن يكون ميلاد ابن حبيب دائراً بين عامي١٧٥هـ، ١٧٦هـ، وبالتالي يكون قد عاش على مسرح الحياة مدة تصل إلى سبعين عاماً، ويكون قد عاصر فيها سبعة من الخلفاء العباسيين، وهم:-

---

(١) السابق نفسه ص٦.

- هارون الرشيد ١٧٠هـ- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩م.

- الأمين ١٩٣- ١٩٨هـ/ ٨٠٩- ٨١٣م.

- المأمون ١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م.

- المعتصم ٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م.

- الواثق ٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢- ٨٤٧م.

- المتوكل ٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م[1].

ومحاولة تحديد تاريخ ميلاد ابن حبيب بهذه الطريقة، وهذا الاستدلال عملٌ إيجابي في هذه الدراسة بلا ريب.

ثانيًا: ولقد صمتت المصادر التي ترجمت لمحمد بن حبيب البغدادي- أيضًا- عن تحديد السنة التي انتقل فيها من بغداد إلى سُرَّ من رأى، ويرى الدكتور محمد عبدالقادر أحمد أنه من الممكن أن يكون محمد بن حبيب قد انتقل إليها في العام نفسه الذي انتقل إليها فيه الخليفة العباسي المعتصم بالله، وهو عام ٢٢٠هـ، ويدلل الدكتور محمد عبدالقادر على صحة افتراضه هذا بما اشتهر عن محمد بن حبيب من كونه واحدًا من مؤدبي أولاد الخلفاء، وأبناء الأمراء في ذلك الزمان، ومن ثمَّ فإن انتقال الخليفة والأمراء إليها كان يستلزم بالضرورة أن ينتقل إليها معهم مؤدبو أولادهم الذين يقف في مقدمتهم محمد بن حبيب.

وأشار المحقق إلى أن ابن حبيب البغدادي يكون قد قضى خمسة وعشرين عامًا في سُرَّ من رأى من تاريخ انتقاله إليها حتى تاريخ وفاته.

ومحاولة تحديد تاريخ انتقال ابن حبيب البغدادي إلى سُرَّ من رأي، ومحاولة تحديد المدة الزمنية الكلية التي قضاها في هذه البلدة محاولة إيجابية بلاشك، وتعد من إضافات هذه الدراسة.

---

(١) السابق نفسه ص٧.

ثالثًا: أورد الدكتور محمد عبدالقادر أحمد في سياق ترجمته لمحمد بن حبيب نصين ينسبان إلى زعيم مدرسة الكوفة النحوية أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب فيهما تعريض شديدٌ بصاحبنا، وزراية عليه، والنص الأول منهما هو: يقول ثعلب: "حضرت مجلس ابن حبيب فلم يُمْلِ، فقلت: ويحك! أمْلِ، مالك؟! فلم يفعل حتى قمت"[1].

هكذا أورد الدكتور محمد عبدالقادر النص دون أن يعلق عليه بكلمة، وفي تصوري أن هذا النص يمكن أن يدل على معنيين:

الأول: أن أبا العباس أحمد بن يحيي ثعلب يريد أن يشير من طرفٍ خفيٍّ إلى أن العلماء الجدد كانوا يتهيبون الحديث إذا كان من بين مستمعيهم هذا الحبر الكوفي إجلالاً منهم لمنزلته العلمية، وهذا المعنى لا أظنه كان وارداً على خاطر ثعلب وهو يصرّح بهذه القالة.

الثاني: أن أبا العباس أحمد بن يحيي ثعلب كان يريد أن يصف محمد بن حبيب بالعي والحصر، واحتباس الكلام، وعدم القدرة على الإملاء على التلاميذ إما بسبب من ضعف جهاز النطق عنده، وعدم مقدرته على التكلم بطلاقة، وإما بسبب جهله، وقلة محفوظه من العلم، وهذا المعنى هو الذي أظن أنه كان دائراً بخلد ثعلب، وهو يدلي بهذا الكلام، ويؤكد هذا الظن عندي النص الآخر الذي أورده المحقق منسوبا إلى ثعلب أيضًا وهو: "بلغني أن محمد ابن حبيب يملي شعر حسّان بن ثابت فأتيته، ولما عرف موضعي قطع الإملاء فانصرفت، وعدت إليه فترفقت به فأملى، وكان لا يقعد في المسجد الجامع فعذلته على ذلك، ولم أزل به حتى قعد في جمعة من الجمع، واجتمع الناس فسأله سائل عن هذه الأبيات:-

---

(١) السابق نفسه ص١٠.

أزُخْنَةَ عنِّي تطردين تبددتْ	بلحمك طيرٌ طِرْنَ كُلَّ مطِير
فقي لا تُزلِّي زلةً ليس بعدها	جُبورٌ وزلاَّت النساء كثير
فإني وإياه كرِجْلَي نعامةٍ	على كُلِّ حالٍ من غِنيَ وفقيرِ

فَفَسَّرَ ما فيه من اللغة فقيل له: كيف تقول: "من غني وفقير" وكان يجب أن تقول: "من غني، وفقر" فاضطرب فقلت للسائل: هذا غريبه، وأنا أنوب عنه، وبيّنت العلة، وانصرف، ثم لم يعد للقعود بعد ذلك. وانقطعت عنه[1].

ويشي هذا النص بحرص ثعلب على إحراج محمد بن حبيب مرتين:-

الأولى: عندما هرع أبو العباس إلى ابن حبيب بعد ما وصل إلى سمعه أنه يملي شعر حسان بن ثابت، ويشير النص إلى أن ابن حبيب لم يرتح إلى وجود ثعلب ضمن مستمعيه فكان يكف عن الحديث والإملاء.

والأخرى: عندما ذهب ثعلب إلى محمد بن حبيب وأخذ يُلحُّ عليه أن يلقي درسه بالمسجد الجامع في بغداد، ويشير النص إلى أن ابن حبيب قبل مشورة ثعلب بعد لأي، وذهب إلى المسجد الجامع وهو غاصٌّ بالمستمعين، وأخذ يملي على الجمهور شعر حسان إلى أن استوقفه سائلٌ وسأله عن غريب بعض أبياته، وهنا تدخل ثعلب بين السائل والمسئول قائلاً: إن هذا من الغريب، وأنا أنوب عنه، وأخذ يبيِّن العلة في قول حسّان"من غني وفقير" ويعرض على مستمعي ابن حبيب ما لديه من علم، وما عنده من معرفة، ولقد دفع هذا السلوك غير السوي من ثعلب أبا جعفر إلى الانصراف من المسجد الجامع، وعدم الجلوس فيه للإملاء على التلاميذ بعد ذلك، وحدثت الجفوة بين العالمين، ويحاول ثعلب أن يقنعنا بأنه هو الذي انقطع عن ابن حبيب، لكن الحقيقة الواضحة من سياق



(١) السابق نفسه ص١١، ١٢.

الكلام أن أبا جعفر هو الذي انقطع عن هذه الشخصية المستفزة التي تتغيا تشويه صورة أي عالم ناشئٍ أمام متأدبة بغداد.

وفي تصوري أن الدافع الذي ألجأ ثعلبا إلى سلوك هذه السبيل مع ابن حبيب، هو أن ثعلبًا كان زعيم المدرسة الكوفية في النحو العربي، على حين أن ابن حبيب كان نحويًا على مذهب البصريين، ومن ثمّ يمكن أن تمثل تصرفات ثعلب مع ابن حبيب صورة من صور المعارك الفكرية التي كانت دائرة في بغداد بين مدرستي النحو الكبيرتين في ذلك الزمان: المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية.

رابعًا:- ذهب الدكتور محمد عبدالقادر أحمد يدلّل على مكانة ابن حبيب العلمية في مجال التاريخ والأنساب، فذكر أن كتابه "المحبَّر" قد توارد عليه عدد من الجغرافيين والمؤرخين من مثل ياقوت الحموي ت٦٢٦هـ الذي نقل فقرًا منه في "معجم البلدان"، وابن الأثير الجزري ت٦٣٠هـ الذي نقل فقرًا منه في "أسد الغابة"، وابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ الذي اعتمد على ما به من معلومات تاريخية في الإصابة[1].

وأقول: ليس المتأخرون وحدهم هم الذين اعترفوا بمكانة ابن حبيب ونقلوا عن كتبه، بل إن المتقدمين - أيضًا- قد تواردوا على كتبه، ونقلوا عنها نصوصًا كثيرة فها هو ذا أبو الفرج الأصفهاني المتوفي٣٥٦هـ يأخذ عن كتاب المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، وأسماء من قُتِل من الشعراء لمحمد بن حبيب خبر اغتيال عبدالله بن موسى الهادي يقول: "أخبرني على بن سليمان الأخفش في كتاب المغتالين قال حدثني أبو سعيد السكري عن محمد بن حبيب

(١) السابق نفسه ص٣٨.

قال: كان عبدالله بن موسى الهادي معربداً، وكان قد أحفَظَ المأمونَ مما يعربد عليه إذا شرب معه، فأمر بأن يُحَبّسَ في منزله فلا يخرج منه، وأقعد على بابه حرسا ثمَّ تذمَّم من ذلك فأظهر له الرضا وصرف الحرس عن بابه، ثم نادمه فعربد عليه أيضا وكلَّمَهُ بكلام أحفظه، وكان عبدالله مغرمًا بالصيد، فأمر المأمون خادمًا من خواص خدمه يقال له حسين فسمَّهُ في دُرّاج وهو بمرسى أباد، فدعا عبدالله بالعشاء، فأتاه حسين بذلك الدُّراج فأكله. فلما أحس بالسُّم ركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني. قال: وأكل معه من الدُّرّاج خادمان، فأما أحدهما فمات من وقته، وأما الآخر فبقي مدة ثم مات، ومات عبدالله بعد أيام[1].

خامساً:- لم يفت الدكتور محمد عبدالقادر أحمد أن يشير في هذا الجزء الخاص بابن حبيب البغدادي من دراسته إلى الرأي الغريب الشاذ الذي طرحه الدكتور محمد حميد الله في كلمته التي اختتم بها نشرة كتاب المحبر والذي فحواه أن صاحبنا كان شيعيًا.

وذكر الدكتور محمد عبدالقادر أن حميد الله يستند فيما ذكره عن شيعية ابن حبيب على ما لاحظه من:-

أولاً: أنه لا يذكر اسم السيدة عائشة رضى الله عنها أبداً، وأنه كلما ذكر اسم أبي بكر أردفه برحمه الله، وهذا ما يفعله عندما يتحدث عن عمر بن الخطاب فإنه يتبع اسمه أيضاً برحمه الله.

ثانيًا: أنه عندما يتحدث عن السيدة خديجة يتبع اسمها برضى الله عنها وعندما يتحدث عن سيدنا علي بن أبي طالب يتبع اسمه برضى الله عنه.

---

(١) الأغاني للأصفهاني ١٠/ ١٩٧.

ثالثاً: أنه أطنب في الحديث عن خصال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الجاهلية[1].

ومضى الدكتور محمد عبدالقادر يفنّد هذه الحجج وينفي شيعية ابن حبيب بقوله: "وهذه القرائن التي أثبتها حميد الله لا يمكن أن تقف دليلاً على شيعية ابن حبيب، وهي استنتاجات مبنية على الظن، ولا يدعمها الدليل القائم على النص الصريح بشيعية الرجل، فلم يذكر أحدٌ من القدماء الذين ترجموا له أنه كان شيعيًا، أو من أهل التشيُّع، أو كان يقوى رأي الشيعة، وهي العبارات التي درج القدماء على أن يذكروها عند وجود شبهة في معتقد من يترجمون له[2].

وفي تصوري أن ما قام به الدكتور محمد عبدالقادر من نفي شيعية ابن حبيب البغدادي هو من أهم إيجابيات دراسته.

سادسًا:- يختتم المحقق هذا الجزء الخاص من دراسته عن ابن حبيب بالحديث من وفاته، ثم بحديث آخر عن منزلته العلمية[3]، وكان يجب أن يتحدث عن المنزلة العلمية للمترجم له، ثم يتبعها بعد ذلك بالحديث عن وفاته.

ونأتي إلى القسم الثاني من أقسام دراسة المحقق ابن حبيب وكتابه حسب تصنيفي، وهو القسم الخاص بموضوع الكتاب، وفيه أشار المحقق إلى أن الكتاب كتاب أنساب، وليس كتابًا من كتب السيرة النبوية الشريفة.

ولقد جاء هذا القسم في تسع صفحات كاملة، وهو يُشكِّل- في تصوري-

---

(١) كتاب أمهات النبي ﷺ ص١٢، ١٣.

(٢)السابق نفسه ص١٤.

(٣) ينظر في الحديث عن وفاة ابن حبيب السابق نفسه ص٣٣ وما بعدها، وينظر في الحديث عن منزلته العلمية السابق نفسه ص٣٧ وما بعدها.

الفصل الثاني من فصول الدراسة الكاشفة عن المؤلِّف والمؤلَّف، وتحدث فيه الكاتب عن الموضوعات الآتية:

١- نسب الرسول ﷺ.

٢- أهمية علم الأنساب.

٣- نفي ما ورد من أن النبي ﷺ كان يرى أن النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر.

٤- نظرة الخلفاء الراشدين للنسب.

والملاحظة الجوهرية على هذا القسم أن الكاتب كان عالة فيه على ما كتبه الإمام ابن حزم الأندلسي في مقدمة كتابه: "جمهرة أنساب العرب" حيث بإمكاننا أن نلحظ لونين من ألوان الاتكاء على ما جاء في الجمهرة عند كتابة هذا المبحث، أما اللون الأول فيتمثل في الأخذ والنقل الصريح عنها دون الإشارة إليها ويتجلى ذلك في موضعين:-

أولهما عند حديثه عن أهمية علم الأنساب في الإسلام حيث قال: "فالمسلم محتاج إلى معرفة أبيه وأمه، وكل من يلقاه بنسب في رحم محرمة، ليجتنب ما يحرم عليه من النكاح فيهم، وأن يعرف كل مَنْ يتصل به برحم توجب ميراثا، أو تلزمه صلة، أو نفقة، أو معاقدة، أو حكما ما".

فهذا الكلام منقولٌ بنصه وفصه من الجمهرة دون أن يشير الكاتب إلى ذلك[١].

والموضع الآخر الذي نقل فيه الكاتب عن الجمهرة دون الإشارة إليها كان

---

(١) السابق نفسه ص٤٥، ٤٦، ويقابل بما ورد في جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ص٢ بدءًا من منتصف السطر الرابع عشر إلى نهاية السطر السادس عشر، طبعة ذخائر العرب بتحقيق عبدالسلام محمد هارون.

عند حديثه عن كلام النبي ﷺ في الأنساب حيث قال: كان الرسول ﷺ يتكلم في النسب فمن قوله نحن بنو النضر بن كنانة، ويروي أنه ﷺ ، ذكر أفخاذ الأنصار وفاضل بينهم، ثم قدّم بني النجار، ثم بني عبد الأشهل، ثم بني الحارث بن الخزرج، ثم بني ساعدة، ثم قال عليه السلام، وفي كل دور الأنصار خير، وذكر بني تميم، وبني عامر بن صعصعة وغطفان، وأخبر عليه السلام أن مزينة وجهينة وأسلم وغفار أخير منهم يوم القيامة، وذكر بني تميم وشهدتهم على الدجال، وأخبر عليه السلام أن بني العنبر بن عمرو بن تميم من ولد إسماعيل، ونسب الحبشة إلى أرفدة، ونادى قريشا بطنًا بطنا وكل هذا علم نسب[1].

وفي تصوري أن الدكتور محمد عبدالقادر أحمد كان بإمكانه أن يستفيد من كلام ابن حزم هذا فائدة جُلّى بدل أن يأخذه هذا الأخذ السافر، وذلك لو أنه ذكر الفقرة من كلام ابن حزم ثم أتبعها بالدليل عليها، فإن ابن حزم عندما قال "ويروي أنه ﷺ ذكر أفخاذ الأنصار وفاضل بينهم، ثم قدم بني النجار، ثم بني عبد الأشهل، ثم بني الحارث بن الخزرج، ثم بني ساعدة، ثم قال عليه السلام: وفي كل دور الأنصار خير" كان يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه وهو: "حدثني محمد بن بشار، حدثنا غُندر، حدثنا شعبة قال: سمعت قتادة عن أنس بن مالك عن أبي أسيد رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير، فقال سعد: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضّل علينا فقيل: قد فضلكم على كثير[2].

وكان الإمام ابن حزم يشير أيضا إلى الحديث الذي رواه الإمام النسائي في

---

(١) السابق نفسه ص٤٧، ويقابل بما ورد في جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ص٤ بدءًا من آخر السطر العاشر وحتى نهاية الصفحة.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٠- ٤١.

سننه وهو أخبرنا محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر عن شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس عن أسيد قال: قال رسول الله ﷺ خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن خزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير. قال: سعد: ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد فضّل علينا فقيل قد فضلكم على كثير"[1].

وابن حزم عندما قال: "وذكر بني تميم، وبني عامر بن صعصعة وغطفان، وأخبر عليه السلام أن مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفار خيرٌ منهم يوم القيامة" كان يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه وهو "حدثني محمد بن بشار، حدثنا ابن مهدي عن سفيان عن عبدالملك بن عمير، عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال النبي ﷺ أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد، ومن بني عبدالله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة.

فقال رجلٌ: خابوا وخسروا فقال: هم خير من بني تميم، وبني أسد، وبني عبدالله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة"[2].

وابن حزم عندما قال: "وذكر بني تميم وشدتهم على الدجال" كان يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام البخاري- أيضًا- وهو "حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: لا أزال أحبُّ بني تميم، بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: هم أشدُّ أمتي على الدجال. وكانت فيهم سبيّة عند عائشة فقال أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قوم أو قومي"[3].

---

(١)السنن الكبرى للإمام النسائي ٥/ ٩٠.

(٢)صحيح البخاري ٤/ ٢٢١.

(٣)صحيح البخاري ٥/ ٢١٢.

وابن حزم عندما قال: "ونسبَ الحبشة إلى أرفده" كان يشير إلى الحديث الذي رواه الإمام البخاري – أيضا– في صحيحه وهو "حدثنا يحيي بن بكر، حدثنا الليث عن عُقَيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن أبا بكر ﷺ دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفِّفان وتضربان والنبي ﷺ مُتَغشٍّ بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال دعها يا أبا بكر فإنها أيام عيد، وتلك الأيام أيام منى، وقالت عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني وهو ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم فقال النبي ﷺ : أمنًا بني أرْفَدة يعني من الأمن"[1].

وأرى أن ابن حزم كان يشير بقوله عن النبي صلى الله عليه وسلم "ونادى قريشًا بطنًا بطنًا" إلى الأحاديث التي أوردها الإمام البخاري في تفسير قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) وهي: "حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا عمرو بن مُرَّة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) جعل النبي ﷺ ينادي: "يا بني فهر، يا بني عديّ ببطون قريش"[2] "وقال لنا قَبِيصة: أخبرنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) جعل النبي ﷺ يدعوهم قبائل قبائل"[3]. "وحدثنا أبو اليمان أخبرنا شُعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: "يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما

---

(١) السابق نفسه ٤/ ٢٢٥.

(٢) السابق نفسه ٤/ ٢٢٤.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

من الله، لا أملك لكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما"[1].

كان هذا عن اللون الأول من لوني الاعتماد على ما جاء بجمهرة أنساب العرب في كتابة مواد هذا القسم من أقسام دراسة المحقق، وهو اللون الخاص بالأخذ والنقل عنها دون الإشارة إلى ذلك.

ونأتي إلى اللون الآخر من لوني الاعتماد على ما كتب ابن حزم في جمهرته، وهو الخاص باستفادة الكاتب مما أورد ابن حزم من معلومات دون الإشارة إلى ذلك وقد تجلّى هذا في المواضع الآتية:

أولاً: عند حديثه عن أهمية علم الأنساب حيث استشهد بالآية نفسها التي استشهد بها ابن حزم على أهميته وهي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]، واستشهد بالحديث نفسه الذي استشهد به ابن حزم وهو قول النبيﷺ: "تعلموا من أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأجل، مرضاة للرب"[3].

وهكذا أباح كاتب الدراسة لنفسه أن يغير على أدلة الإمام ابن حزم، ولم يُعَنِّ نفسه بالبحث عن أدلة أخرى تؤيد دعوى هذا الإمام الجليل.

ولقد كان بمقدور الباحث أن يستشهد على أهمية علم الأنساب بمثل قوله

---

(١)السابق نفسه ٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢)سورة الحجرات آية رقم ١٣، ويُنظر أمهات النبي ﷺ ص٤٦، ويُقَابل بما ورد في مقدمة جمهرة أنساب العرب ص١.

(٣) يُنظر أمهات النبي ﷺ ص٤٦، ويُقَابل بما ورد في مقدمة جمهرة أنساب العرب ص٢، ٣، ويلاحظ أن الباحث قد نقل الحديث، ولم ينقل سلسلة السند، كما يلاحظ أنه نقل في هوامشه تخريج العلامة أحمد محمد شاكر، والأستاذ ليفي بروفنسال للحديث دون الإشارة إلى جهديهما في ذلك.

تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ولا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ * والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ويَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾[1].

وبمثل قوله تعالى ﴿ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وبِذِي القُرْبَى﴾[2] وبمثل قوله ﷺ ابن الأخت من القوم[3].

ثانيًا: عند حديثه عن نظرة الخلفاء الراشدين للنسب حيث ذكر أن عمر بن الخطاب كان يحض على تعلم الأنساب، وأنه هو وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب كانوا من أعلم الناس بالأنساب بعد أبي بكر الصديق، وأنهم ما فرضوا الديوان إذ فرضوه إلا على القبائل، ولولا علمهم بالأنساب ما أمكنهم ذلك، وهذه كلها معلومات مستمدة من كتاب ابن حزم دون أدنى إشارة إليه[4].

ثالثًا: عند حديثه عن علماء الأنساب في الجاهلية والإسلام حيث عدَّ منهم الخلفاء الراشدين الأربعة أبا بكر، وعمر ، وعثمان، وعلي، وأبا الجهم بن حذيفة العدوي، وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وسعيد بن المسيِّب، وابنه محمد بن سعيد، والإمام الشافعي محمد بن إدريس، وبمقابلة هذا الحديث على ما قاله الإمام ابن حزم في هذه الجزئية وجدنا تطابقًا تامًا بين القولين مما يدل على أن الكاتب قد استمد معلوماته مما ورد بجمهرة أنساب العرب، وليس عيبًا أن يستفيد الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد مما ورد بهذا الكتاب، وإنما العيب في أنه لم يشر إلى ذلك[5].

---

(1)سورة الرعد١٩- ٢١.

(2)سورة النساء آية رقم ٣٦.

(3)صحيح البخاري ٣/ ١٠٩.

(4)يُنظر أمهات النبي ﷺ ص٤٩، ويُقَابل بما هو موجود في جمهرة أنساب العرب ص٥.

(5)يُنظر السابق نفسه ص٥٠، ويُقَابل بما هو موجود في جمهرة أنساب العرب ص٥.

ثم إن هناك عيبًا آخر يكمن في أن الباحث لم يضف على ما كُتب في موضوعه من قبل، ولقد كان من الممكن أن يضيف لو أنه تحدث عن جهود أبي السائب هشام بن محمد الكلبي، وأبي بكر بن دريد الأزدي في علم الأنساب.

ـ ٤ ـ

والقسم الثالث من أقسام دراسة المحقق كان خاصًا بوصفه النسخة المخطوطة، ووصف النسخ الخطية له نظام ثابت، وأحسنه تقسيم الوصف إلى قسمين الأول: وصف مظهر النسخة، والثاني: وصف مضمونها[١].

ووصف مظهر النسخة يقتضي الحديث عن أوراق النسخة من حيث عددها، وترقيمها إن كانت مرقمة، وترتيبها وعدد السطور في كل صفحة، وطول الصفحة وعرضها، ومساحة السطح المكتوب عليه منها، وهل الكتابة واضحة أو ممسوحة؟، ثم نتكلم إن كانت النسخة سليمة أو ممزقة، أو تشتمل على تخريم من أكل العث، وهل هي كاملة أو ناقصة،؟ وهل النقص في أولها، أو في آخرها، أو في وسطها؟ وفي أي مكان من الوسط؟ ثم نصف الورق والتجليد[٢].

ووصف مضمون النسخة يجب أن يحتوي على اسم الكتاب ومؤلفه وأين يذكر اسم الكتاب، أفي العنوان؟ أم في المقدمة؟ ... ويذكر أول الكتاب – بعد قول المؤلف أما بعد – وآخره، ونبيّن موضوعه، ونسرد أسماء أبوابه، ...، ثم ننتقل إلى الخط، فنذكر أسلوبه وكيفية تنقيطه وتشكيله، ونصف ما نشاهده فيه من الزخرفة،...، وننقل ما كتبه مالك النسخة عليها، وما يوجد فيها من السماعات والخواتم، ونذكر في آخر الوصف اسم الكتاب وموضع نسخه

---

(١)أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستراشر، أعدها وقدّم لها محمد حمدي البكري مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ص١١٤.

(٢)السابق نفسه صـ١١٤.

للكتاب، وتاريخ ذلك، وما يذكره الكاتب عن الأصل الذي نسخ عنه، ...، ونبيِّن إملاء النسخة وخصائصها التي تنفرد بها، ونحكم هل هي صحيحة أو مغلوطة أو متوسطة[1].

ولقد تحدث الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد عن مظهر النسخة المخطوطة، وعن مضمونها، وكان في هذا الحديث عالة على الناشر الأول للكتاب الدكتور/ حسين علي محفوظ، والدليل على ذلك قوله في الكلام عن عدد صفحات النسخة، وطول كل صفحة وعرضها، وعدد السطور فيها "وتضم النسخة ثمان صفحات، وتشتمل كل صفحة على ١٥ سطرًا، وجاء في وصف هذه النسخة أن طول أوراق أصلها القديم ٢٣,٦ سنتيمترًا في عرض ١٥,٩، وطولها الآن ٢٤,٢ فقد الصقت بأوراقها حاشية من الطرف الأعلى"[2].

وهذا الوصف منقول بنصِّه عن الدكتور/ حسين علي محفوظ مع ملاحظة أن الدارس قد قدّم وأخر في بعض العبارات، وتحدث عن عمل الدكتور/ محفوظ بالتجهيل تعمية على القارئ، وصرفًا له عن المقابلة بين النشرتين[3].

ويقول في الكلام عن الحبر الذي كُتبت به النسخة كما جاء في وصفها أن لون الحبر أسود ناصل يميل إلى لون البن من تقادم العهد، وأن الفواصل مكتوبة بالحمرة[4].

وهذا الوصف منقول أيضًا عن الناشر الأول للنص، وليس للناشر الثاني منه إلا العبارة الدالة على الحديث عن عمل الناشر الأول بالتجهيل.

وعند الحديث عن خط النسخة قال الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد "وخط

---

(١)السابق نفسه ص١١٤، ١١٥.

(٢)أمهات النبي ﷺ ص٥٥، ٥٦.

(٣)أمهات النبي ﷺ ، نشرة حسين علي محفوظ ص٥.

(٤)أمهات النبي ﷺ ، نشرة د. محمد عبدالقادر، مصدر سابق ص٥٦.

النسخة بقلم نسخي جيد، تقرب بعض حروف من الثلث، ويبدو أن كاتبها كان من أهل الأدب والضبط والإتقان، وقد جاء طرفٌ من نسبه في عمدة الطالب ص ٢٢٧، وبحر الأنساب ١٢٦، وكتاب الأنساب للسيد عدنان البحراني ت ١٣٤٠هـ ولم نجد أثرًا لترجمته، ويضم كتاب أعيان الشيعة ج٢٢/ ٤٤٤-٤٤٥ ترجمة رقمها ٤٣٩٧ نقلها السيد الأمين من الرياض لمرزا عبد الله ت ١٢٠هـ ونيّف أخالها له[1].

وهذه الفقرة مأخوذة من مقدمة الدكتور حسين علي محفوظ حيث لفّق الباحث بين عددٍ من جمل الدكتور محفوظ وعباراته ليكون منها الفقرة التي أمامنا فقوله: "تقرب بعض حروفه من الثلث" هو نص كلام الدكتور محفوظ في وصف خط النسخة الوارد بالفقرة الثالثة من الصفحة الخامسة من مقدمته[2]، وقوله "وكاتبها من أهل الأدب والضبط ..." إلخ الفقرة هو نص كلام الدكتور محفوظ في الحديث عن كاتب النسخة الوارد بالصفحة السادسة من مقدمته.

وعند الحديث عن خصائص رسم النسخة يقول الدكتور محمد عبد القادر وقد حرص كاتب النسخة على طبعها[3] "بالشكل الكامل، كما أمعن في إعجام الحروف، وضبط الأسماء، فكتب تحت الحاء المهملة حاءً صغيرة، كيلا تصحف حاءً معجمة، ولا جيمًا منقوطة، وخصّص العين المهملة فكتب تحتها عينًا صغيرة ليأمن تصحيفها غينًا معجمة، وميّز السين والراء المهملتين بقوس صغيرة فتحتها من فوق.

ومن خصائص رسم هذه النسخة أن الكاتب أتبع واو (بنو) ألفاً

(١)أمهات النبي ﷺ، نشرة د. محمد عبدالقادر، مصدر سابق ص٥٤، ٥٥.

(٢)أمهات النبي ﷺ، نشرة د. حسين علي محفوظ مصدر سابق ص٥.

(٣)لعله كان يريد أن يقول: ضبطها.

(الورقة٤/ ب س٤) خلافاً للمعروف. ولم يرسم (ابن) بالألف وإن كانت في رأس السطر وفاقًا لما قرره ثقات الكتاب. ورسم الألف الممدودة هكذا (اا) الورقة(١/ ب س٣) والورقة(٤/ ب س٨)، وخالف نفسه فرسمها(آ) في الورقة (١/ أ س٢)".

وهكذا الكلام الذي وضعته بين علامتي تنصيص منقولٌ كله عن الدكتور حسين علي محفوظ دون أدنى إشارة إلى ذلك.

وليس عيبًا أن يأخذ عالمٌ متأخر عن عالم متقدم لا سيما في تلك المعارف النقلية والوصفية التي لا يستطيع أن يقول فيها المتأخرون شيئًا يزيد على ما قاله فيها المتقدمون، ولكن العيب يكمن في عدم إرشاد القارئ إلى مواضع الاقتباس والنقل.

ولا يشفع للدكتور محمد عبدالقادر عندي أنه قال: "وقد سمح لي العلامة عبدالسلام هارون بتصوير هذه النسخة المطبوعة... والتي أهداها له الناشر الدكتور حسين محفوظ... وأشهد أنني استفدت منها"[1]. وذلك لأن هذا من الكلام العام، وكانت الأمانة العلمية تقتضي أن يفصِّل القول في وجوه الاستفادات المتعددة التي أفادها من هذه النشرة، وأن يشير في هوامشه إليها كلما أخذ عنها.

ويتميز وصف النسخة عند الدكتور محمد عبدالقادر أحمد بميزتين:

أولاهما: أنه التزم بما أوجبه المستشرق الألماني برجستراشر من ضرورة أن يحتوي وصف مضمون النسخة على اسم الكتاب ومؤلفه، وأين يذكر اسم الكتاب... إلخ وأن يحتوي أيضًا على اسم مالك النسخة وما عليها من

---

(١) السابق نفسه ص٥٩.

سماعات وخواتم ...إلخ، وذلك حيث وصف صفحة الغلاف على هذا النحو قائلاً:

"وتضم صفحة الغلاف اسم الكتاب واسم مؤلفه والرواية والسماع على النحو التالي:

كتاب أمهات النبي ﷺ

عن أبي جعفر محمد بن حبيب

كان على النسخة المنقول منها ما هو صورته

رواية أبي الحسن أحمد بن محمد بن الجهم السمري

نسخ من نسخته بخطه

سماع على بن محمد الأسدي....."[1].

ووصف آخر صفحة من المخطوطة بقوله: "وجاء في آخر النسخة في آخر صفحة من المخطوطة

تمّ الكتاب والحمد لله رب العالمين

كتبه لنفسه العبد الفقير إلى رحمة ربه وشفاعة

جده الحسن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن محمد بن زيد

ابن أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدالله بن علي بن عبيدالله

ابن علي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي

ابن أبي طالب صلوات الله عليهم وسلامه. حامدًا

الله تعالي على نعمه السابغة ومصليا على سيدنا محمد النبي

---

(١) السابق نفسه ص٥٦- ٥٧.

وآله الطاهرين ومسلما تسليما كثيرا.

في شهر رمضان سنة تسع عشر وستماية هجرية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام[1].

وتجدر الإشارة ها هنا إلى أن الدكتور محمد عبدالقادر أحمد قد أخطأ في ذكره اسم عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن أبي طالب حيث ذكر أن اسمه عبدالله والصواب كما هو واضح في نسخة الدكتور حسين علي محفوظ المطبوعة بالتصوير عن نسخة جامعة طهران أن اسمه عبدالله.

والميزة الأخرى التي يتميز بها وصف مضمون النسخة المخطوطة عند الدكتور محمد عبدالقادر أحمد أنه عقد مقارنة بين منهج ابن حبيب البغدادي في كتابه هذا "أمهات النبي ﷺ"، ومنهجه في كتابه "المحبر".

فعن منهج ابن حبيب في أمهات النبي ﷺ يقول المحقق "وقد رسم ابن حبيب لنفسه في هذا الكتاب منهجا سار عليه والتزم به من أول الكتاب حتى آخره، فهو يبدأ كتابه بالبسملة، ثم باسم راوي الكتاب أبي الحسن أحمد بن محمد بن الجهم السمري وقراءته على مؤلفه أبي جعفر محمد بن حبيب، ثم اسم الرسول ﷺ بخط عريض، ومن تحته أسماء أمهاته، اسم أمه آمنة بنت وهب، ثم اسم أمها واسم أم أمها، ويستمر في ذلك ذاكراً أسماء ثمان أمهات للرسول حتى يصل بالأم الثامنة إلى ثقيف.

ثم ينص على اسم أبيه بخط عريض، ويذكر أمهاته، ثم اسم جده عبدالمطلب ويذكر أمهاته، وهاشم وعبد مناف، وقصى إلى آخر السلسلة وعندما يذكر كل جد يذكر أمهاته[2].

---

(١)السابق نفسه ص٥١.

(٢)السابق نفسه ص٨٩.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن ابن حبيب البغدادي قد ذكر للنبي ﷺ ثماني أمهات، وذكر لوالده عشر أمهات، وذكر لجده عبدالمطلب أربع أمهات، وذكر لجده هاشم أربع أمهات، وذكر لجده عبد مناف أمّين، وذكر لجده قصي ثلاث أمهات، وذكر لجده كلاب أربع أمهات، وذكر لجده مُرّة ثلاث أمهات، وذكر لجده كعب أربع أمهات، وذكر لجده لؤي ثلاث أمهات، وذكر لجده غالب ثلاث أمهات، وذكر لجده فهر ثلاث أمهات، وذكر لجده مالك أمّين، وذكر لجده النضر أمًّا واحدة، وذكر لجده كنانة أمّين، وذكر لجده خزيمة أمًّا واحدًا، وكذلك فعل مع أجداده مدركة، وإلياس، ومضر، ونزار، ومَعَدّ حيث ذكر لكل واحدٍ منهم أمًّا واحدة، ولم يذكر اسم أم جده عدنان.

ومن هذا العرض يتبين أن حبيب لم يلتزم بمنهج ثابت في ذكر أسماء أمهات أجداده ﷺ فتارة يذكر للجد أمًّا واحدة مثلما فعل مع أجداده النضر وخزيمة، ومدركة، وإلياس، ومضر، ونزار، ومعد، وتارة يذكر للجد أمّين مثلما فعل مع أجداده عبد مناف، ومالك، وكنانة، وتارة يذكر للجد ثلاث أمهات مثلما فعل مع أجداده قصيّ، ومرّة، ولؤي، وغالب، وفهر، وتارة يذكر للجد أربع أمهات مثلما فعل مع أجداده عبدالمطلب، وهاشم ، وكلاب، وكعب وتارة لا يذكر للجد أمًّا مثلما فعل مع جده عدنان.

ومن خلال قراءتنا لما أورده ابن حبيب من أسماء أمهات أجداده ﷺ يتبيّن لنا أيضا أنه ينص أحيانا على الاختلاف في اسم الأم أو على الاختلاف في اسم أبيها أو على الاختلاف في اسمها واسم أبيها معًا، فمثال نصه على الاختلاف في اسم الأم قوله عن أم لُبَابَة بنت عبد مناة بن كنانة جدّة كلاب بن مرّة وأمها هند ويقال عاتكة بنت دُوْدَان بن أسد بن خزيمة[1] ، ومثال نصه على الاختلاف

(١)السابق نفسه ص٩١.

في اسم أبيها قوله عن أم فهر بن مالك "وأمه جَنْدَلة بنت عامر ابـن الحـارث بـن مُضاض بن زيد بن مالك بن عياض بن جرهم ويقال بل جندلـة بنـت الحـارث بن جندل بن مُضاض بن الحارث"[1] ، ومثال نصه على الاختـلاف في اسـم الأم واسم أبيها معا قوله عن أم كنانة بن خزيمة "وأمه عوانة بنتُ سعد بـن قـيس بـن عَيْلان بن مُضَر ويقال بل هند بنت عمرو بن قيس بن عيلان".

ومن خلال قراءتنا لما أورد من أسماء أمهات أجداده ﷺ يتبيَّن لنا أيضا أنـه أحيانا يقوم بالتعريف بالعلم الذي يذكره ليزيد القارئ معرفة به مثلما فعل عند حديثه عن جَدَّة قصي بن كلاب المباشرة طُرَيْفَةَ بنـت ذي الرأسـين حيـث قـال معرِّفاً بذي الرأسين: "وهو أمية بن جُشَم بن كنانة بن عمرو بن قين بـن فهْـم"[2]، ومثلما فعل عند حديثه عن عِكْرِشَة بنت عَدْوَان أم مالك بن النضر حيـث قـال معرِّفا بوالدها عَدْوَان "وهو الحارث بن قيس بن عيلان بن مضر"[3].

كان هذا الحديث عن منهج ابن حبيب البغدادي في كتابه أمهات النبي ﷺ أما عن منهجه فيما كتب في هذا الموضوع في كتابه "المحبَّر" فيختلف عـن المنهج الـذي اختطه هنا، فمنهجه في المحبَّر سار فيه على أساس ذكـر العواتـك اللاتـي ولـدن رسول الله ﷺ، وتحت العواتك جمع كل من تسمى عاتكة من أمهات الرسول، ثم ذكر الفواطم اللاتي ولدنه ﷺ ، وذكر تحت هذا العنوان كل مـن تسـمى فاطمـة من أمهاته ﷺ ، وأمهـات أجـداده، وتحـت تقسيم العواتـك والفـواطم أجـرى تقسيمًا آخر، فالعواتك من قريش ثنتان ذكرهما تحت عنوان القرشيتان ومن بـني يخلد بن النضر بن كنانة واحدة، ومـن بـني سـليم ثـلاث ذكـرهن تحـت عنـوان

---

(1) السابق نفسه ص٩٣.

(2) السابق نفسه ص٩٢.

(3) كان يجب أن يقول "فالقرشيتان من العواتك ..." لأنه قال بعدها "والقرشية من الفواطم..." فدلَّ بهذا على أن ابن حبيب كان يتكلم عن العواتك أولاً.

السلميات، ومن عدوان ثنتان سماهما العدوانيتان، ثم أسدية، وهذلية وقضاعية، وأزدية.

وتحت تقسيم الفواطم أجرى تقسيمًا فرعيًا فذكر أن إحداهن قرشية، وقيسيتان، ويمنيتان.

وتحت هذه التصانيف الفرعية التي يربطها بالقبائل العربية يذكر أسماء الأمهات ولحمة النسب التي تربط الرسول ﷺ بهذه القبائل، فالقرشيتان[1] من قبل أبيه، والقضاعية من قبل كعب بن لؤي بن غالب، والأسدية من قبل كلاب بن مرة، والقرشية من الفواطم من قبل أبيه عبدالله، واليمانيتان من الفواطم من قبل قصي ابن كلاب[2].

كان هذا الحديث عن الوجه الأول من وجوه الاختلاف في المنهج بين ما ورد بأمهات النبي ﷺ وما ورد بالمحبَّر من حديث عن النسب الشريف، أما الوجه الآخر من وجهي هذا الاختلاف فيكمن في أن ابن حبيب كان في كتاب المحبَّر عندما يتعرض لأم جدٍ من جدود الرسول ﷺ يذكر أمه ونسبها، ثم يذكر أسماء أمهات آبائها، أما في كتابه أمهات النبي فإنه يذكر أسماء سلسلة نسبه ﷺ ثم يذكر أسماء أمهات الأمهات[3].

-٥-

سبق أن أشرت في غير موضع من هذا البحث أن الدكتور/ حسين علي محفوظ قام بنشر كتاب أمهات النبي ﷺ عن طريق طبع الصورة الشمسية

---

(١)السابق نفسه ص٥٢، ٥٣، وكان يجب أن يقول في فالقرشيتان من العواتك لأنه قال بعدها: والقرشية من الفواطم فدلّ بهذا على أن ابن حبيب كان يتكلم عن العواتك أولاً.

(٢)السابق نفسه ص٥٣.

(٣)أمهات النبي ﷺ ، نشرة د. حسين علي محفوظ ص٥.

لمخطوطته، وظهرت هذه النشرة في بغداد عام ١٩٥٢م وكان هذا واحدًا من الأسباب التي حدت بالدكتور/ محمد عبد القادر أحمد أن يقوم بإعادة تحقيق الكتاب ونشره وفي هذا يقول إن ناشر الكتاب الدكتور حسين علي محفوظ لم يقم بنسخ المخطوطة عن الأصل وتقديمها إلى القارئ مطبوعة بحروف المطبعة كما نفعل في معالجة المخطوطات ونشرها، ولكنه اكتفى بنشر صورة النسخة الأصلية مصورة عن الأصل[١].

وقد انتهج الدكتور/ محفوظ هذه السبيل لحرصه على خصائص النسخة التي لا تستطيع صناعة الطبع أن تأتي بها[٢] ولأنها تنم على عناية الأقدمين بصحة الاستنتاج، وإغراقهم في تجويد الكتابة، وإمعانهم في الضبط[٣].

ولكن هذه الغايات لا تشفع له عند الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد الذي يرى أنه ليس في مقدور كل قارئ في هذا العصر أن يقرأ المخطوطات العربية خاصة وأن هذه النسخة كتبت في سنة ٦١٩هـ أي في القرن السابع الهجري، وعلى الرغم من أنها كتبت بخط نسخي حسن إلا أنه ليس من السهل على القارئ العادي أن يقرأ حروف المخطوطات العربية، وحتى المتخصص في نشر المخطوطات وتحقيقها ليس من السهل عليه أن يقرأ بطلاقة ويسر حروف المخطوطات، يضاف إلى ذلك أن ما قدمه الناشر عبارة عن صورة مصورة عن الأصل، وليس التصوير كالأصل فبعض الحروف قد تضيع في التصوير ولا تبدو واضحة كالأصل تمامًا[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن الدكتور/ محفوظ لم يخطئ حين نشر

---

(١)السابق نفسه ص٥٨.

(٢)السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣)أمهات النبي ﷺ، نشرة د. محمد عبدالقادر ص٥٨، ٥٩.

(٤)أمهات النبي ﷺ، نشرة حسين علي محفوظ ص٦،٥.

الكتاب بطبع الصورة الشمسية للمخطوطة لأنها فريدة لا ثانية لها، وقد نقلت من نسخة مكتوبة من نسخة أبي الحسن أحمد بن محمد بن الجهم السمري التي رواها عن المؤلف، وعليها سماع علي بن محمد الأسدي[1].

والنسخ التي هذا شأنها يجوز فيها الطبع عن طريق التصوير الشمسي يقول برجستراسر ونورد هنا كلمة عن طبع الكتب بنشر الصورة الشمسية إن لم يوجد للكتاب إلا نسخة واحدة قديمة، واضحة سهلة الكتابة، وهذه لا بأس من نشرها إذا ألحق الناشر بالصورة الشمسية كل ما يُحتاج إليه من الهوامش والفهارس وغيرها كما فعل Von Mzik في نشر كتاب الوزراء لابن عبدوس الجهشياري، وكذلك إذا كان لا يوجد للكتاب إلا نسخة واحدة وهو في غاية الصعوبة، ولا يوجد من يتجاسر على تصحيح نصه، ويجتهد في شرحه، وكانت الحاجة إلى نشره ضرورية فلابد من نشر الصورة الشمسية مكان طبع الكتاب بالحروف فهذه هي حالة ديوان الشاعر الأندلسي ابن قزمان المتوفى ٥٥٥هـ الذي ألف أكثر شعره في لهجة الأندلس العربية الدارجة، وبعضه بالأندلسية القديمة مكتوبة بالحروف العربية ونشر دي جونسبورج صورة شمسية للنسخة الوحيدة ونشر الصورة الشمسية هنا مما ينوب عما هو خير منه عند الضرورة وعلى كل حال فالصورة الشمسية لنسخة مضبوطة صحيحة أنفع من طبع نسخة لا يُعنى ناشرها بتصحيحها أو غيرّ أو بدّل فيها[2].

وبتطبيق هذه الأصول النظرية التي تحدث عنها برجستراسر على صنيع الدكتور/ حسين علي محفوظ نرى أنه لم يحد قيد أنملة عن منهجية النشر العلمي للنصوص التراثية كما وضعها المستشرقون حيث أتبع نشر صورة النص بطائفة

---

(١)أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستراشر مرجع سابق ص١١٢، ١١٣.

(٢)أمهات النبي ﷺ، نشرة حسين علي محفوظ التعليق على الورقة ٢/أ ص١٨.

كبيرة من التعليقات بلغت ثمانية وستين تعليقًا، وإذا علمنا أن النص كله يتكون من سبع ورقات أدركنا ضخامة الجهد الذي بذله الناشر في التعليق عليه.

ولقد تنوعت هذه التعليقات تنوُّعًا كبيرًا فمنها ما كان خاصًّا بذكر تتمة النسب كما في تعليقه على اسم أم عبد الله بن عبد المطلب الثامنة عاتكة بنت عامر بن الظَّرِب حيث قال: "تتمة النسب في المحبرِّ ص٥٠ هكذا؛ الظَّرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن الحارث بن عدوان"[1]، وكما في تعليقه على اسم أم كعب بن لؤي ماويّة بنت كعب بن القين بن جسر بن شيع الله بن أسد بن وبرة حيث قال: "تتمة النسب في الطبري ١١٠٠، والطبقات ص٣٥، أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة"[2].

ومن هذه التعليقات ما كان خاصة بذكر اختلاف اسم الأم في المصادر المتعددة كما في تعليقه على اسم أم فهر بن مالك جندلة بنت عامر بن الحارث بن مضاض بن زيد بن مالك بن عياض بن جرهم، أو جندلة بنت الحارث بن جندل حيث قال: "وعن ابن اسحاق: أمه جندلة بنت الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي وعن أبي عبيدة: أمه سلمى بنت أد بن طابخة، وقيل: إن أمه جميلة بنت عدوان بن بارق من الأزد، راجع الطبري ص١١٠٢"[3].

ومن تعليقات الدكتور/ حسين علي محفوظ -أيضًا- ما كان خاصًّا بضبط أسماء الأعلام كما في تعليقه على اسم حمالة بن عوف بن عامر الجادر حيث قال "حِمالة بالكسر في الطبري ص١٠٩٢، وفي الطبقات ص ٣٥ حَمالة بالفتح"[4].

---

(١)السابق نفسه، التعليق على الورقة ٣/أ ص٢٠.

(٢)السابق نفسه، التعليق على الورقة ٣/ب ص٢٠، ص٢١.

(٣)السابق نفسه، التعليق على الورقة ٢/ب ص١٩.

(٤) أمهات النبي ﷺ نشرة محمد عبدالقادر أحمد ص٨٥.

ووضع الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد على نص كتاب ابن حبيب البغدادي ثمانية وثمانين هامشًا يمكن تصنيفها على النحو التالي:

أولاً: ما أخذه من تعليقات الدكتور/ حسين علي محفوظ دون أن يشير إليه أو يزيد عليه، ويندرج تحت هذا القسم العدد الأكبر من الهوامش التي صنعها، وبحسب المرء أن يقابل بين هوامشه على أسماء أمهات أجداده ﷺ كلاب، ومرة، وكعب، ولؤي، وغالب، وفهر، وبين تعليقات الدكتور/ حسين علي محفوظ على هذه الأسماء ليكتشف أن هذه الهوامش هي عبارة عن هذه التعليقات بألفاظها، وأرقام صفحات المصادر التي استمدت منها.

ثانياً: ما انفرد به هو من الهوامش والتعليقات فعندما أورد ابن حبيب اسم عبدالمطلب بن هاشم صنع الدكتور محمد عبدالقادر هامشًا ذكر فيه أن اسم عبد المطلب شيبة، ثم ذكر أن اشتقاق شيبة من الشيب من قولهم شاب شيبة حسنة، وشيبا حسنا[1]، وعندما أورد ابن حبيب اسم هاشم بن عبد مناف صنع الدكتور محمد عبدالقادر هامشًا ذكر فيه أن هاشمًا سمي بهذا الاسم فيما يزعمون لهشمه الخبز للثريد واسمه عمرو، وعندما ذكر ابن حبيب اسم أم النضر بن كنانة برّة بنت مر صنع الدكتور محمد عبدالقادر هامشًا ذكر فيه أنها أخت تميم بن مرّ.

■ ■ ■

(١) أمهات النبي ﷺ نشرة محمد عبدالقادر أحمد ص٨٦.

كتب أخرى للمؤلف

مرتبة حسب تاريخ نشرها لأول مرة

١- الصفدي وشرحه على لامية العجم، دراسة تحليلية، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، والطبعة الثانية ٢٠٠٢، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥، وكلها صدرت عن مكتبة الآداب بالقاهرة، والطبعة الرابعة عام ٢٠٠٦ وقد صدرت عن مطبعة الشاعر بطنطا، ثم صدرت الطبعة الخامسة عن مكتبة الآداب – بالقاهرة عام ٢٠٠٧، وقد كتب عليها خطأ الطبعة الأولى لذا لزم التنويه هنا حيث لم نستطع إصلاحها هناك، وهذا الكتاب جزء من رسالتي التي أحرزت بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز عام ١٩٩١م.

٢- شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي كاتبًا رؤية أدبية ونقدية، الطبعة الأولى، مطبعة الشاعر بطنطا، ٢٠٠٦م، وهو جزء من رسالتي التي أحرزت بها درجة الدكتوراه عام ١٩٩٩م بمرتبة الشرف الأولى.

٣- رائية جمال الدين التبريزي في واقعة مرج الصفر قراءة في شبكة الظروف والتناص، نشر بالعدد الثالث من المجلد العاشر من مجلة كلية التربية جامعة عين شمس، القسم الأدبي الصادر في عام ٢٠٠٤، ثم نشر بعد ذلك في طبعة مستقلة بعنوان: دراسات في روائع الأدب المملوكي، (٢)، رائية جمال الدين التبريزي في واقعة مرج الصفر مقاربة تحليلية، وصدر عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م عن مكتبة الآداب بالقاهرة.

٤- ابن القم الزبيدي ورسالته إلى أبي حمير اليماني في المديح والاستعطاف رؤية موضوعية وفنية، نشر بالعدد الثالث من المجلد الحادي عشر من مجلة كلية التربية جامعة عين شمس، القسم الأدبي، الصادر في عام ٢٠٠٥، ثم نشر بعد ذلك في طبعة مستقلة بعنوان دراسات في غرر الأدب الفاطمي، (١)، ابن القم

الزبيدي ورسالته إلى أبي حمير اليماني في المديح والاستعطاف، رؤية في البناء الموضوعي والفني، وصدر عام ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م عن مكتبة الآداب بالقاهرة.

٥- **ديوان تقي الدين السَّروجي ما تبقَّى من شعره وموشحاته، جمع وتحقيق** ودراسة، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق في عددها الحادي والأربعين الصادر في ربيع ٢٠٠٧م، ثم نشر بعد ذلك في طبعة مستقلة بعنوان: دراسات في روائع الأدب المملوكي، (١)، ديوان تقي الدين السَّروجي ما تبقَّى من شعره وموشحاته جمع وتحقيق ودراسة، وصدر عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، عن مكتبة الآداب بالقاهرة.

وللمؤلف تحت الطبع:

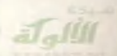
٦- **شخصيات مصرية**، ويضم مجموعة مختارة من المقالات التي نشرها المؤلف من قبل في مجلة الأزهر، ومنبر الإسلام، ومجلة المجلة العربية السعودية، وفي جريدة الأخبار القاهرية في المدة من عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م إلى عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠م.

■ ■ ■









محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

■ ■ ■

